روايات الهلال

محمد البساطى



أوراق العائلة

العدد ٦٥٧ - سبتمبر ٢٠٠٣ - رجب ١٤٢٤ هـ

روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمى
تصـدر عن مـؤسـسـة دار الهـلال

الاصــــدار الأول
يـنـايـر ١٩٤٩

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج. م. ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولارا

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

للاشتراك فى الكويت: السيد عبدالعال بسيونى زغلول الصفا ص. ب. ٢١٨٣٣ (13079) ت: ٤٧٤١١٦٤

الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات: ص. ب: ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج. م. ع.

تلكس :
Telex 92703 hilal u n

فاكس :
FAX 3625469

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت ١٢٥٠ فلسا - السعودية ١٢ ريالا - البحرين ١.٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١.٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٣.٥ دولار - سويسرا ٤ فرنكات .

عنوان البريد الإلكترونى :
darhilal@idsc. gov . eg

أوراق العائلة

بقلم

محمد البساطى

•

دار الهلال

الغلاف للفنان :
محمد حجى

الكورس :

يا لك من مسكين

كيف وقعت مصائبك ؟

يوربيدس

كنا نعيش فى بيت واحد . جدى الأكبر وجدى لأبى وأنا وأخى وأبى وأمى .

حجرة الجد الكبير كامل فى نهاية المر بمؤخرة البيت بعيدا عن ضجة الحركة اليومية بالحوش، جنبها حجرة الجد شاكر . أمامهما مرحاض يخصهما، المر قصير معتم، كان ضوء النهار الآتى من بئر السلم يخفف قليلا من ظلمته، ونستطيع فى قعدتنا بالحوش أن نرى بابى الحجرتين المواربين، ونلمح من يخرج منهما إلى المرحاض تسبقه سعلة خفيفة، حين يكون الجد الكبير هو الخارج تظل عيوننا ترقب المر حتى يعود إلى حجرته، مشيته الحذرة مستندا بيده على الجدار تجعلنا نخشى عليه، كان عجوزا جدا، شديد النحول لا يتحمل الجلباب على جسده يتركه دائما مطويا فوق المخدة مكتفيا بالسروال الطويل وفانلة بكمين . نادرا ما يغادر حجرته، المرات القليلة التى شاركنا الطعام كانت فى المواسم، يتصدر الطبلية، وتعلق أمى فوطة على صدره، وتضع أمامه سلطانية الشوربة بالشعرية واللحم مهروس بها ، يده المرتعشة ترفع الملعقة، يتمهل بها ليوقف اهتزازها قبل أن تصل إلى فمه، رغم ذلك تتساقط الشوربة من الملعقة وتبلله ، نختلس النظر إليه بعد أن حذرنا أبى ونكتم ضحكاتنا .

أمـي المـرأة الـوحيـدة بالبيـت، تساعدها نسوة من الجيران، ترسل صينيـة الطعـام مع واحدة منهن إلى الجد الكبيـر وإبريق الماء والطشت ليغسـل يديه او يتـوضـأ . نتـسـلل إليـه أنا وأخي الذى يصغرنى ، كانت أمي تنهانا عن الذهـاب إليه حتى لانتعبه، ينتبه من غفوته لدى دخولنا، يفتـح فمـه الأدرد دون صـوت مرحبا وعيناه الصغيرتان الغائرتان وسط التجاعيد عالقتان بوجهينا، ويفسح لنا مكانا بجواره على الفرشة .

حواديتـه كثيـرة، غريبة، لا تشبـه ما نسمعـه من الآخرين . عفريت يخرج من النهر فى الليل يخطف البنات من فوق الشط، وقطط تتحول إلى ذئاب فى الليالى المقمرة . حين يأتى إلى مغامرات الحمارة العمياء ننفجر فى الضحك، ويضحك معنا مجففا بيده ما يسيل من عينيه ويأتى صوت أمي مناديا، ولا نلتفت إليها وقد اندفعنا فى الهرج. أحيانا يتوقف عن الحكى ويسألنا إن كنا نتذكر جدتنا امرأته ؟

ونقول إننا أخبرناه من قبل أننا لم نرها .

يرمقنا ساكنا ذابل العينين ويغمغم : لم تروها ؟

ونصيح به ليعود لحدوتة الحمارة العمياء .

لا يلتفت إلينا . حركة فمه وكأنما يلوك شيئا :

- لم تروها . هى التى حكت مئات الحواديت . ما من حدوتة إلا وكانت تعرفها . كل ما أحكيه لكم من حواديتها . امرأة بعشرة نسوان. وإلا حلاوتها . صدرها ما شاء الله يرضع حارة بكاملها .

وفخذاها الهائلتان . آه . تشطفهما آخر النهار . تقول ...

ويأتى صوت الجد شاكر من الحجرة المجاورة غاضبا :

- حا يبتدى يخرف .

يصمت الجد الكبير وأذنه للباب، يتساءل :

- بيكلم مين ؟

ونهز أكتافنا ونظل فى سكوتنا، نخشى أن يشتبكا فى الكلام كعادتهما فلا نسمع الحواديت، وقد تأتى أمي على زعيقهما فننال بعض اللطمات لأننا السبب .

يعود الجد الكبير لسؤالنا وفمه يرتعش :

- بيكلم مين ؟

ويزعق الجد شاكر :

- ومين يكون غيرك ؟ لسانك الفالت .

ينحنى الجد الكبير فى قعدته، يهز رأسه مرة وأخرى :

- وتقولها ؟ طول عمرك نطع . حتى يوم موتها سحبوك من أمام حلة المحشى. لتراك . فاكر أننى نسيت ؟

أتسلل وأخى فى هدوء قبل أن يشتعل الشجار بينهما .

يفضى الممـز إلى حوش واسع حيث الفرن وقعـدة النسـوان بالنهار مع أمى، على جانب الحوش حجرتان، واحدة للدواجن والأخرى للخزين، أجـولة أرز وقمح فوق بعضـها، وقدور الجبن والسمن، كنت وأخى نختبىء بينها عندما يبحثون عنـا، وبالجانب الآخـر من الحوش باب ضخم صريره مرتفع، يسمونه باب الوسط، تغلقه أمى دائما، يؤدى إلى المبنى الجديد _ البيت الثانى _ الذى ألحقه أبى بالبيت القديم لدى زواجه . له باب خارجى خاص به، ويتكون من أربـع حجرات، اثنتان للنوم ، وواحدة للضيوف، والرابعة للقعاد تستقبل فيها أمى زائراتها، وثمة صالتان، واحدة كبيرة، فى جانب منها ترابيزة السفرة وملحقاتها، وفى الجانب الآخر مقاعد فوتيه، والصالة كلها كانت مجهزة لاستقبال ضيوف أبى الكثيرين، وكانت وحدها التى تضاء بالكلوبات، الصالة الثانية صغيرة تتوسـط الحجـرات حيث نتناول طعامنا متحلقين حـول الطبـلية، ويحلو لأبى أن يتمدد على الكنبة بها بعد الغذاء . الجدران مدهونة بالزيت، والأرض مكسوة ببلاط ملون، وثمة حمام كبير يسعنى وأخى لدى الاستحمام .

ظل البيت القديم على حاله . وعندما أراد أبى أن يجرى به بعض التجديدات رفض الجد الكبير، كانت أرضه طينية وغير مسـتوية،

وجدرانه سميكة بها فجوات عديدة خلفتها المسامير الضخمة والحلقات الحديدية، ودرجات السلم المؤدى للسطح متآكلة، والسقف من عروق خشب اختفت تحت طبقة سميكة من الهباب الذى تلفظه عين الفرن وكان يتدلى فيما يشبه الحبال القصيرة، وثمة قفص من الجريد معلق فى السقف تحفظ به أرغفة العيش وأوانى الطعام الذى يخشى عليه من الفئران والزواحف، يرفع القفص وينزل بحبل يثبت طرفه حول مسمار بالحائط .

البيت يشغى بالحركة طول النهار، وباب الخروج المطل على الحوش يظل مفتوحا على سعته .

فى الليل يهدأ كل شىء، ويخلو الحوش ويصمت، يبدو فى الظلمة موحشا وكئيبا، تشعل أمى مصباحا صغيرا تعلقه فى الممر مقابل حجرتى الجدين، وتنتقل إلى البيت الثانى وتغلق باب الوسط وراءها، لحظتها أحس وكأن البيتين انفصلا عن بعضهما، وتتألق أضواء المصابيح الكبيرة داخل الصالة الصغيرة، وتفتح أبواب الحجرات، وتزاح الستائر عن النوافذ .

تأخذ أمى حماما وتلبس جلبابا خفيفا بدون أكمام، وتجهز العشاء لأبى الذى اقترب مجيئه .

عادة يخرج جدى شاكر بعد أذان العشاء، اسمع الباب الخارجى للبيت القديم يفتح ويغلق، وسعلته حين يستقبل هواء الشارع، الجد الكبير لا صوت له وكأنما نعس، وبعد ساعة زمن - وأكون لا أزال فى الصالة مع أخى، وأمى وأبى دخلا حجرتهما يتبادلان الكلام هناك - أسمع صوت حركة الجد الكبير فى الحوش، يذهب ويأتى،

وطرف عصاه يدق الجدران من حين لآخر، فى البداية أفزعنا الأمر، كنا نتخيله تحول إلى شبح راح يتجول فى أنحاء البيت، وربما يطير فى فضاء الحوش . بعدها نقلنا قعدتنا إلى جوار باب الوسط المغلق ننصت لحركته، كان يغمغم بكلام لا يصلنا واضحا، الصوت فقط، أنصاف كلمات، تشوبه حدة أحيانا، وربما يلوح بعصاه لحظتها، كنت أسمع خبطا مكتوما وكأنه طرف العصا يضرب الجدار، ويصمت ، يطول صمته، ونظنه جلس فى مكان ما بالحوش، وننتظر ، تأتينا تنهيدته العميقة، هو غير بعيد عنا، ثم يتأوه كعادته حين يهم بالوقوف مستندا إلى شىء ما . يعود إلى تجواله فى الحوش، صوت حركته كأنما دخل إحدى الحجرتين، لحظة وأخرى، دقات طرف العصا على القدور، هى حجرة الخزين، وفى ليلة خمنا من الصوت انه يصعد إلى السطح، نتساءل بنظراتنا عما يفعله هناك، وجاءنا وقع خطواته الخافت على سطح البيت القديم، وصرير الخشب الضعيف، هو سقف حجرة الدواجن الذى يصدر عنه هذا الصوت حتى لو مشى عليه أخى . أبى وأمى نائمان، باب حجرتهما مغلق، رفعت أخى ليفتح ترباس باب الوسط، ثم دفعناه ببطء لنكتم صريره، الحوش مظلم من ناحية الباب الخارجى، وضوء السماء الرمادى يتدفق إلى الطرف الآخر خلال منور السلم . نلبد بجوار باب الوسط وننتظر، يطول انتظارنا، وخطواته على السطح تمضى من طرف إلى آخر، ثم نراه يهبط السلم فاردا طوله فى الضوء الناعم، يبدو لحظتها كأنه غير الجد الكبير الذى نعرفه، ويمضى إلى باب حجرتى الدواجن والخزين ويغلقهما، دائما يلمحنا منزويين بجوار الباب، ينحنى مداعبا خدودنا ثم يختفى فى الممر

يشتد النقاش أحيانا بين الجدين، وتكون النسوة في الحوش، تخفت ضجتهن، ويتحاشين النظر ناحية أمي التي تتوقف يداها عن العمل وترفع رأسها منصتة . تكتم النسوة الضحك و يخفين وجوههن في الطرح، وعندما تفلت كلمات نابية من الجدين ينفجرن في الضحك وتبتسم أمي وتهز رأسها، بعدها يتهامسن بأخبار جدي شاكر، مـا سمعنه في الحارة أو السوق . كن أكبر سنا من أمي، وعلاقتهن بالبيت تمتد إلى ما قبل زواجها عندما كان جدي شاكر شابا ويأتين لمساعدة الجدة زينب، حكين الكثير في قعداتهن عن جدي أيام زمان وكن وقتها في صدر شبابهن، منهن من تزوجت حديثا، ومنهن المقبلة على الزواج، ويد جدي لا تفرق بين واحدة وأخرى، يمدها إلى أجسادهن في غفلة من الجدة، يده ثقيلة وتضغط، كن يصحن من الألم، وينهرنه في غضب، والكلام الذي كان يهمس به لهن ويخجلن من ذكره، مـرة في مـرة وامتدت أيديهن، يزحن يده في عنف قبل أن تصل إليهن، ويدفعنه من ظهره بعيدا، هو الضخم يستسلم لدفعهن ضاحكا . في وجود امرأته الست زينب يكون رزينا عاقلا، هن أيضا يقفن أو يقعدن متحفظات وكأن شيئا لا يجري في الخفاء . وتعلق واحدة أثناء جلستهن في الحوش :

- من يسمعك يظن أن حاجة كانت بتحصل .

- أبدا . كله كان هزار فى هزار .

- ويعنى واحدة قالت له آه وقال لأ .

- وعمر ما واحدة تقول له آه بعد ما تشوف الست زينب وتعرفها .

وتقول أمى : سمعت انها كانت حلوة .

- حلوة وحلوة .

- فلقة قمر .

- طول وعافية وبياض .

- ولا لف ولا دوران . الكلمة هى الكلمة .

- وآه يا ست أم ياسر لو شفتيها بتغير هدومها . كانت أوقات تلبس روب فوق قميص بحمالات . قميص حرير يلمع . وأوقات جلابيب إنما غير جلابيبنا . نسيت من أين كانت تأتيها . نصف كم . وزراير كبيرة من أمام أو من الخلف . ولونها المشجر . والسادة . ألوان حلوة . وعمر ما جلباب وصل طرفه لقدمها . دائما بطن رجلها مكشوفة . رجل مخروطة وناعمة بتبرق . وساعة الخروج الجلباب يتغير . يجر وراءها على الأرض . والكم الطويل . والطرحة حول رقبتها . عمرها ما غطت بها شعرها . كانت الناس تنتقدها لما تشوفها ماشية كاشفة شعرها . وحتى لو وصل لها كلام ولا كان يهمها . مرات نعرف انها بتغير هدومها . ونترك ما بأيدينا ونبص من فتحة الباب الموارب . وعينك ما تشوف إلا النور . أيه . ولا أيه . ولا أيه .

- وكنا يا ست أم ياسر نستغرب زواجها منه . هى أيضا من بيت كبير . ومعها شهادة . أظنها الابتدائية . ابتدائية زمان . أخذتها لما كانت عايشة فى بيت خالها بالمركز أو مدينة أيه موش فاكرة، والحاج شاكر، يعطيه طولة العمر لا راح مدرسة ولا فك يخط . نصيب .

- ومنين تعرف طبعه ؟

- صحيح . لم يظهر إلا بعد الزواج . وكلنا كنا فى البيت قبل زواجه . من تقول انه مد يده ناحيتها ؟

- صحيح . وكفاية نبش فى أسرار الناس .

وتلح أمى ليعدن للكلام وقد أحست أن هناك ما يخفينه، ويؤكدن لها أنهن لا يخفين شيئا، وأنها تعرف كل ما يعرفنه .

يغادرن وقت الظهر بعد أن ينهين الخبيز والغسيل والكنس، ومع إقتراب موعد الغداء تأتى أم سالم بصحبة ولديها . كانت أرملة، مات زوجها بالسل من عامين، تساعد أمى فى الطبخ وإعداد الطعام، وتقعد مع ولديها فى ركن الحوش لتناول الغداء . بعدها تحمل صينية إلى جدى الكبير، وتعود لتأخذ صينية الجد شاكر وتظل فى حجرته إلى أن ينتهى من غدائه . فى غيابها نلعب مع ولديها . كنا فى عمر متقارب . نصعد إلى أعلى رصة أجولة الحبوب ونتزلق، ثم ننطلق إلى الحوش والشارع، حين تزداد مضايقاتهما لنا فى اللعب، خاصة سالم ابنها البكر الذى كان يعترض على ما أقترحه من ألعاب ويكثر من الصنائع، ويهدد بعدم اللعب، وأحيانا يتغلبان علينا فى الحرب أنا وأخى، كنت أنهض من سقطتى وقد تملكنى الغضب وأعيرهما بما

يأكلانه عندنا ويلبسانه من جلابيبنا . يقفان لحظة صامتين مترددين، ثم يعودان للعب، ويتركاننا نتغلب عليهما، وكان ما يضايقنى أنهما يسقطان سريعا مع بداية اللعب .

تخرج أمهما من حجرة الجد شاكر، وأكون فى الحوش وأمى أيضا، نلتفت على صرير الباب فى المر، ألمحها هناك تحمل الصينية على رأسها وتسوى بيدها صدر جلبابها، تضع الصينية جانبا وتحمل ابريق الماء والطشت إلى المر، وبعد قليل تعود بهما وصينية طعام الجد الكبير وكانت خفيفة ليس بها غير سلطانية الشوربة . تشطف المواعين وترصها فى مكانها . وتسأل امى إن كانت تريدها فى شيء آخر ؟

وتكون أمى مشغولة، تعد الشاى لأبى، وأحيانا لضيوفه، أو ترتب الأطباق الصينى والملاعق، تنظر إليها خطفا وتقول :

- كتر خيرك يا أم سالم .

تشير لولديها أن يتبعاها، أحيانا يجذب الصغير منهما جلبابها فى شدة، تنحنى عليه يهمس لها أنه يريد طبقا آخر من المهلبية . تدفعه أمامها خلال الباب الخارجى المفتوح وتمضى .

ويوما لمحتها خارجة من حجرة الجد شاكر . كنت مع ولديها فى ركن الحوش نعد كرة من شراب قديم عندما وقفتْ فى الحوش بجوار أمى . رأيت يدها تلم مزقا بصدر جلبابها . كان المزق كبيرا كشف جانبا من ستيانها حائل اللون، وكانت ثمة خدوش خفيفة على خدها تتحسسها بأصابعها من لحظة لأخرى، انحنت أمى تنظر للخدوش وتلمسها خفيفا، ثم غابت وعادت بقطن ومطهر، أرقبهما فى

فضول وأمى تعالج الخدوش . وجه أم سالم الشاحب، وعيناها الساكنتان .

بعدها حملت الطشت والابريق لتذهب إلى الحجرتين . همست أمى :

- خلى بالك من نفسك .

- فاهمة يا أم ياسر . والله فاهمة .

ولدى مغادرتها البيت أعطتها أمى جلبابا من جلابيبها .

فيما بعد، حيرنى ما قالته أمى، كنت بلغت السابعة عشرة وأسألها كثيرا عن الأيام الماضية أحيانا تجيبنى وأحيانا تسكت، وفاتنى أن أسألها عن معنى ما قالته لأم سالم . وإذا كانت تعرف أن الجد شاكر يفعل شيئا مع المرأة كما يوحى بذلك ما قالته فلم كان سكوتها وموافقتها ؟

كنت صغيرا أيامها، لاأعى الكثير مما أراه، لكنه الفضول يدفعنى للتحديق، والأحداث لا تبتعد كثيرا عنى، كانت دائما فى متناول بصرى وسمعى، وكانت مجرد صدفة أن أستمع للجد شاكر وأم سالم وهما فى الحجرة .

كنت فى حجرة الجد الكبير، يتناول غداءه منحنيا على سلطانية الشوربة وقد توقف عن عمل المراكب التى كان يصنعها لى من أوراق كراسة قديمة، أردت أن تكون عشرين مركبا حربيا، أسطول نلسون الذى هزم نابليون فى أبوقير كما حكى لى أبى .

وسألنى الجد الكبير : ومن نلسون ؟

- قائد انجليزى .

- ومن نابليون ؟

- قائد فرنسى .

- ومالنا بهم . يضربون بعضهم كما يشاءون . لم لا تصنع مراكب لسعد زغلول ؟

- لا أعرفه .

كان قد صنع خمسة مراكب حين جاءت أم سالم بغدائه تأملها صامتا وهى تنحنى بالصينية أمامه، وظل يتأملها بعد أن فردت طولها .

سألها إن كانت عملت مهلبية ؟

قالت وهى تستدير لتخرج :

- عملت لما تبرد .

يمتعنى صوت رشفاته المرتفع، أعطيه ظهرى حتى لا يرى الضحك الصامت على وجهى كنت مستغرقا مع مراكبى أدفعها بإصبعى فى اتجاهات مختلفة، وانتبهت لتوقف صوت رشفاته . التفت. كان مائلا برأسه مرهفا أذنه تجاه الباب، الهمس يأتى واضحا، يحتد صوت أم سالم ويخفت :

-لأ يا حاج لأ . كله إلا كده .

- كفاية جلباب قطعته .

- شعرى . شعرى . ابعد ايدك .

صوت الجد شاكر خافت، يكاد لا يسمع، يشوبه فحيح وحشرجة .

- خذى . بريزتين .

- معى ما يكفينى .

- طب ثلاثة .

صمت . شخشخة البرايز المعدنية . همس الجد :

- جيبك لأ . ايدك لأ . أحطهم لك فين ؟

- ربنا ساترها . موش عايزة .

- حاتخديهم .

- رقبتى . بالراحة . حاتقطع الستيان .

- هو مقطوع من نفسه .

يطول الصمت . وأرى الجد الكبير يعود لتناول الشوربة، وأستدير لمراكبى . وتأتى أم سالم بطبق المهلبية .

الجد خافض بصره، يلم ساقيه الممدودتين، تحمل أم سالم الصينية وتخرج .

يصنع لى الجد عشرة مراكب أخرى، ويقول إنها تكفى، ويتمدد .

أحمل المراكب فى حجر جلبابى وأخرج باحثا عن سالم وأخيه، وأحدهما غادرا مع أمهما، أفرغ حجرى فى ركن الحوش حيث خطّ سالم حدود البحر وانتظرنى . تسقط المراكب فوق بعضها . وأنطلق إلى الخارج .

لا أميل كثيرا للجد شاكر، وأخي أيضا . كان سمينا مترهلا . يلتفت في حدة لأقل صوت حتى أنه يفزعنا، فمه مفتوح دائما، مبتل، يكاد اللعاب يسيل منه . يلبس الجلباب الواسع الذي يخفي بطنه الكبير، نكتم أصواتنا حين نمر بحجرته في طريقنا إلى الجد الكبير . نخشى أن ينادينا رغم أنه لم يفعلها أبدا . المرة الوحيدة التي دخلنا حجرته كنا برفقة أبي لنقبل يده صباح العيد، بعدها كنا نختفي في هذه المناسبات .

حجرته واسعة، وسريره ضخم، ورغم وجود دولاب كبير كانت ملابسه تتناثر على المقاعد والكنبة، حتى الداخلية منها، يلبس الجلباب الخفيف على اللحم، يلتصق بجسده ويشف عن ثدييه الكبيرين المتهدلين، لباسه القصير لا يكاد يستر شيئا من فخذيه الهائلتين المكسوتين بشعر كثيف، ربما بسبب ذلك تتجنب النسوة في الحوش الدخول لحجرته، وأمي أيضا، وعندما تحتاج الحجرة لتنظيف أو تهوية من رائحة عرقه تأتي أم سالم . يتربع فوق الفراش لا يتركه إلا للخروج أو الذهاب للمرحاض .

في المرات التي يلقاني فيها بالبيت كان يضربني على قفاي، توجعني ضربته، ويقول كلمة أو كلمتين ويمضي ضاحكا، وفي الشارع يمر بنا أنا وأخي لدى ذهابه لصلاة الجمعة التي يحرص عليها، ولا يبدو أنه عرفنا .

ينطلق في الليل باحثا عن الأفراح خارج البلدة، متجنبا ما يقام منها في الداخل، رغم ذلك كانت أخباره على كل لسان في البلدة . وفي المرات القليلة التي يظهر فيها بالشوارع كان البعض من الأهالي

يلتفتون نحوه وعلى وجوههم بوادر سخرية سرعان ما تختفي، وربما تذكروا لحظتها ما سمعوه وهم يرونه في مشيته الوقور وهالة العظمة التي يحاول أن يوحي بها، تتوجها حركة العصا في يده التي عجز الكثيرون عن تقليدها، وكانت العصا بلمعة بنية ورأس ذهبية تتوهج حين يمسها الضوء، وكان هناك دائما من يردد في صوت يسمعه القريبون منه :

- سبحان الله .

تنتظره عربة الحنطور التي يستأجرها على المحطة، يرافقه ثلاثة من عمر أبي كانوا يعملون بوابور الطحين الذي يملكه الجد الكبير، ولابد أن الجد شاكر عرفهم عندما كان يشرف على الوابور، وطردهم أبي عندما استلمه بعد الجد، قليلون الذين عرفوا أن الجد هو الذي نصح أبي بطردهم، فقد كانوا يسرقون الطحين، ولن يستطيع من كان مثل أبي أن يكتشف ألاعيبهم أو يتعامل معهم، لا يبالي بهم الجد أثناء النهار، وإن تصادف والتقى بهم يمضي وكأنه لا يعرفهم، وأشيع عندما طردهم أبي أن الجد لن يسمح بذلك وهم رفقته في السهرات، وأنها مسألة أيام ويعودون للعمل . غير أنهم لم يعودوا ابدا

ينفر الجد من السهرات التي تجمع من كانوا في سنه من أعيان البلدة، الجلوس بالمقهى الكبير على شط النهر، مسترخين في طمأنينة على مقاعدهم، والشيشة المخصصة لهم، ست أو سبع شيشات مزينة بحلقات من النيكل، ورسوم على زجاجها لوردتين وفرع شجرة ووجه أسد أو ونمر يكشر عن أنيابه، والتمباك الذي يأتون به من العاصمة،

ويتركون لفافات منه فى المقهى لاستخدامهم، ينحنى عامل نظيف يختص بخدمتهم ويهمس للواحد منهم بأن لفافته توشك على النفاد، ويتراجع، ويسبل من همس له عينيه لحظة ويعود لحديثه يلبسون دائما الجلباب الأبيض أو السمنى، وعلى الكتفين عباءة خفيفة جاءوا بها من الأرض المباركة، موشاة بتطريز كثيف على جانبى فتحتها وطرفى الكمين الواسعين .

لا تخلو سهرة لهم من الكلام عن أسعار المحاصيل ومقارنتها بأسعار العام الماضى . الجد وقد بلغ الخمسين لا يملك شيئا، كل الثروة الضخمة من أراض وحدائق ومناحل ومعامل ألبان ووابور طحين وحتى البيت ما زالت ملك الجد الكبير، الجد شاكر لا يشغله هذا الأمر ولا تؤرقه هموم الأعيان، يظل يستمع إلى ثرثرتهم ومخاوفهم التى يتظاهرون بها . فالأسعار كما فهم من كلامهم زادت، إلا أنهم اعتادوا الحذر، فلا يدرى أحد ما تخفيه الأيام.

فى نهاية السهرة لا مانع من المشى قليلا، خاصة فى الليالى المقمرة .

المرات التى شاركهم الجد سهراتهم كان يستمع إليهم مغمضا عينيه خفيفا كأنما يراوده النعاس، ويداه مسترخيتان على بطنه الكبير، يمخط من حين لآخر فى صوت مرتفع، يسكتون حتى يتوقف الصوت ثم يواصلون الكلام .

النساء. الموضوع المفضل للحديث عند جدى، لحظتها يصحو وينتعش، وتتألق عيناه، وتكثر نكاته، ما أن يراهم وقد طال الصمت وشردت نظراتهم نحو مياه النهر الداكنة حتى يبدأ حديثه فى حذر،

يعرف أنهم يتقبلون كلامه فى حدود معينة لا يجوز له أن يتخطاها، كانوا حريصين على مكانتهم فى البلدة، ولا يسمحون أن ينالها أحد بكلمة .

يحكى الجد عن امرأة ما، التقى بها فى مكان ما، صادها بالكلام، قال لها كذا وكذا، وقالت له كذا وكذا، هذا الجانب من الحديث الذى كانوا ينصتون إليه يطيل فيه الجد، ويكون قد اعتدل قليلا فى جلسته، وأخرج قدميه من الحذاء، ثم ينسى نفسه . يتحدث فى وله كيف اختلى بها، تهرب منه وهو يلاحقها، تهمس فى دلع " ابعد ايدك " ولا يبعدها، تستكين أخيرا بين ذراعيه، يخلع ملابسها قطعة قطعة .وتهمس له :

- بالراحة على
- طيب .

ثدياها النافران وحلمتاهما تنتصبان فى رعشة محمومة، " أهى دى النسوان "، تأوهاتها ويده تزحف على بطنها، آه . شعر العانة . هنا القضية . أصابعك تمشطه، تنكشه، تسويه ، متعة الدنيا، وتأتى الواحدة منهن وتزيله . آه والله . تنظف نفسها لترضى رجلها . تمد يدك وكأنك تلمس رأس زغلول الأقرع، من يتذكره منكم ؟

الجد وقد أخذته نشوة الكلام لا يكاد يرى أو يسمع، ثم يلمحهم ولّوا على بعد خطوتين، يصمت الجد محدقا نحوهم فى عجب، يخرج منديلا كبيرا من جيبه يجفف العرق المتدفق على وجهه ورقبته، تبحث قدماه عن الحذاء مغمغما :

- آه . آن الأوان

لا أميل كثيرا للجد شاكر، وأخى أيضا . كان سمينا مترهلا . يلتفت فى حدة لأقل صوت حتى أنه يفزعنا، فمه مفتوح دائما، مبتل، يكاد اللعاب يسيل منه . يلبس الجلباب الواسع الذى يخفى بطنه الكبير، نكتم أصواتنا حين نمر بحجرته فى طريقنا إلى الجد الكبير . نخشى أن ينادينا رغم أنه لم يفعلها أبدا . المرة الوحيدة التى دخلنا حجرته كنا برفقة أبى لنقبل يده صباح العيد، بعدها كنا نختفى فى هذه المناسبات .

حجرته واسعة، وسريره ضخم، ورغم وجود دولاب كبير كانت ملابسه تتناثر على المقاعد والكنبة، حتى الداخلية منها، يلبس الجلباب الخفيف على اللحم، يلتصق بجسده ويشف عن ثدييه الكبيرين المتهدلين، لباسه القصير لا يكاد يستر شيئا من فخذيه الهائلتين المكسوتين بشعر كثيف، ربما بسبب ذلك تتجنب النسوة فى الحوش الدخول لحجرته، وأمى أيضا، وعندما تحتاج الحجرة لتنظيف أو تهوية من رائحة عرقه تأتى أم سالم . يتربع فوق الفراش لا يتركه إلا للخروج أو الذهاب للمرحاض .

فى المرات التى يلقانى فيها بالبيت كان يضربنى على قفاى، توجعنى ضربته، ويقول كلمة أو كلمتين ويمضى ضاحكا، وفى الشارع يمر بنا أنا وأخى لدى ذهابه لصلاة الجمعة التى يحرص عليها، ولا يبدو أنه عرفنا .

ينطلق فى الليل باحثا عن الأفراح خارج البلدة، متجنبا ما يقام منها فى الداخل، رغم ذلك كانت أخباره على كل لسان فى البلدة . وفى المرات القليلة التى يظهر فيها بالشوارع كان البعض من الأهالى

يلتفتون نحوه وعلى وجوههم بوادر سخرية سرعان ما تختفى، وربما تذكروا لحظتها ما سمعوه وهم يرونه فى مشيته الوقور وهالة العظمة التى يحاول أن يوحى بها، تتوجها حركة العصا فى يده التى عجز الكثيرون عن تقليدها، وكانت العصا بلمعة بنية ورأس ذهبية تتوهج حين يمسها الضوء، وكان هناك دائما من يردد فى صوت يسمعه القريبون منه :

- سبحان الله .

تنتظره عربة الحنطور التى يستأجرها على المحطة، يرافقه ثلاثة من عمر أبى كانوا يعملون بوابور الطحين الذى يملكه الجد الكبير، ولابد أن الجد شاكر عرفهم عندما كان يشرف على الوابور، وطردهم أبى عندما استلمه بعد الجد، قليلون الذين عرفوا أن الجد هو الذى نصح أبى بطردهم، فقد كانوا يسرقون الطحين، ولن يستطيع من كان مثل أبى أن يكتشف ألاعيبهم أو يتعامل معهم، لا يبالى بهم الجد أثناء النهار، وإن تصادف والتقى بهم يمضى وكأنه لا يعرفهم، وأشيع عندما طردهم أبى أن الجد لن يسمح بذلك وهم رفقته فى السهرات، وأنها مسألة أيام ويعودون للعمل . غير أنهم لم يعودوا أبدا

ينفر الجد من السهرات التى تجمع من كانوا فى سنه من أعيان البلدة، الجلوس بالمقهى الكبير على شط النهر، مسترخين فى طمأنينة على مقاعدهم، والشيشة المخصصة لهم، ست أو سبع شيشات مزينة بحلقات من النيكل، ورسوم على زجاجها لوردتين وفرع شجرة ووجه أسد أو ونمر يكشر عن أنيابه، والتمباك الذى يأتون به من العاصمة،

ويتركون لفافات منه فى المقهى لاستخدامهم، ينحنى عامل نظيف يختص بخدمتهم ويهمس للواحد منهم بأن لفافته توشك على النفاد، ويتراجع، ويسبل من همس له عينيه لحظة ويعود لحديثه يلبسون دائما الجلباب الأبيض أو السمنى، وعلى الكتفين عباءة خفيفة جاءوا بها من الأرض المباركة، موشاة بتطريز كثيف على جانبى فتحتها وطرفى الكمين الواسعين .

لا تخلو سهرة لهم من الكلام عن أسعار المحاصيل ومقارنتها بأسعار العام الماضى . الجد وقد بلغ الخمسين لا يملك شيئا، كل الثروة الضخمة من أراض وحدائق ومناحل ومعامل ألبان ووابور طحين وحتى البيت ما زالت ملك الجد الكبير، الجد شاكر لا يشغله هذا الأمر ولا تؤرقه هموم الأعيان، يظل يستمع إلى ثرثرتهم ومخاوفهم التى يتظاهرون بها . فالأسعار كما فهم من كلامهم زادت، إلا أنهم اعتادوا الحذر، فلا يدرى أحد ما تخفيه الأيام.

فى نهاية السهرة لا مانع من المشى قابلا، خاصة فى الليالى المقمرة .

المرات التى شاركهم الجد سهراتهم كان يستمع إليهم مغمضا عينيه خفيفا كأنما يراوده النعاس، ويداه مسترخيتان على بطنه الكبير، يمخط من حين لآخر فى صوت مرتفع، يسكتون حتى يتوقف الصوت ثم يواصلون الكلام .

النساء. الموضوع المفضل للحديث عند جدى، لحظتها يصحو وينتعش، وتتألق عيناه، وتكثر نكاته، ما أن يراهم وقد طال الصمت وشردت نظراتهم نحو مياه النهر الداكنة حتى يبدأ حديثه فى حذر،

يعرف أنهم يتقبلون كلامه فى حدود معينة لا يجوز له أن يتخطاها، كانوا حريصين على مكانتهم فى البلدة، ولا يسمحون أن ينالها أحد بكلمة .

يحكى الجد عن امرأة ما، التقى بها فى مكان ما، صادها بالكلام، قال لها كذا وكذا، وقالت له كذا وكذا، هذا الجانب من الحديث الذى كانوا ينصتون إليه يطيل فيه الجد، ويكون قد اعتدل قليلا فى جلسته، وأخرج قدميه من الحذاء، ثم ينسى نفسه . يتحدث فى وله كيف اختلى بها، تهرب منه وهو يلاحقها، تهمس فى دلع " ابعد ايدك " ولا يبعدها، تستكين أخيرا بين ذراعيه، يخلع ملابسها قطعة قطعة .وتهمس له :

- بالراحة علىّ .

- طيب .

ثدياها النافران وحلمتاهما تنتصبان فى رعشة محمومة، " آهى دى النسوان "، تأوهاتها ويده تزحف على بطنها، آه . شعر العانة . هنا القضية . أصابعك تمشطه، تنكشه، تسويه ، متعة الدنيا، وتأتى الواحدة منهن وتزيله . آه والله . تنظف نفسها لترضى رجلها . تمد يدك وكأنك تلمس رأس زغلول الأقرع، من يتذكره منكم ؟

الجد وقد أخذته نشوة الكلام لا يكاد يرى أو يسمع، ثم يلمحهم وقوفا على بعد خطوتين، يصمت الجد محدقا نحوهم فى عجب، يخرج منديلا كبيرا من جيبه يجفف العرق المتدفق على وجهه ورقبته، تبحث قدماه عن الحذاء مغمغما

- آه . آن الأوان .

ابتسامة البعض منهم الغامضة وهم ينصرفون دون انتظاره، ربما لمحها الجد وذكرته بما يشاع عنه من بذاءات تمس فحولته التى يتباهى بها . تسرى الإشاعة كالبرق وتستمر ما يقرب من العشرين يوما، وما تكاد تهدأ حتى تسرى أخرى،أصبح كما قال أبى "موضوعا للتسلية" .

أشيع عنه مرة أنه مثل الديك " منفوش على الفاضى " ، ما يكاد يلمس أنثاه حتى ينتهى، وأشيع عنه بعدها أن عضوه صغير مثل غلام فى العاشرة، وقيل إن كثيرين رأوه وهو يستنجى فى النهر قبل الوضوء على سلم الجامع، رغم أنه كان يأخذ جانبا ولا يقعى جنب الآخرين الذين يرى كل منهم الآخر دون حرج .

عايرنى الأولاد فى الحارة بالإشاعة أياما طويلة، وسببت لى الكثير من العراك، وكان يكفى أن يلوح الولد بإصبعه حتى أفهم ما يعنيه . ودفعنى ذلك لأن أتلصص على جدى . كان لباسه القصير لا يسمح برؤية شىء، وفى نومه يكوم الجلباب بين فخذيه، حتى كانت مرة وأنا فى طريقى إلى الجد الكبير، ولمحت الجد خلال باب حجرته الموارب يغير ملابسه فاندفعت داخلا، استدار بظهره للباب وزمجر :

- اخرج .

تلكأت قليلا وقد أخذتنى الدهشة من رؤية إليتيه الضخمتين، وطيات اللحم الغليظة بجنبيه، وبقع من الشعر تتناثر على جسده، تقدمت خطوة، التفت يرمقنى من فوق كتفه متجهما :

- اخرج .

وخرجت

يمشى الجد متبخترا كما اعتاد، والإشاعات كسحابة قاتمة تتبعه، لا يبدو أنه يلقى إليها بالا. يحيى من يعرفه بهزة خفيفة من رأسه، تلك المرات القليلة التى يخرج فيها أثناء النهار، وأحيانا يقف أمام دكان يتبادل كلمات مع صاحبه، وإحدى قدميه مرفوعة إلى المصطبة، والعصا تحت إبطه، وعيناه المنتفختان تتجنبان ضوء الشمس

ربما كان العناد ما دفعه لمعاودة الذهاب إلى قعدة الأعيان، يحكى عن الصيد حكايات بعينها، ويراهم ينصرفون أثناء حكيه، وينفجر ضاحكا فى صخب، كانوا رجالا مهذبين، لا تخرج الكلمة المعيبة من أفواههم إلا للضرورة، حتى كانت ليلة شاركهم القعدة، وقال واحد منهم فى صوت خافت وهم ينصرفون :

- يعطيه طولة العمر والدك .

حدق فى أثرهم ساهما، تمتم

- لا يقولها حبا فى والدى

وكانت المرة الأخيرة .

قالت أمى : لا تقسو على جدك شاكر كأبيك .

كانت متربعة على الكنبة فى الصالة الصغيرة كما رأيتها دائما، بيدها الابرة والخيط، تلفق ثقوبا فى الشرابات، كنت فى السابعة عشرة، أحوم حولها، وألاحقها بالأسئلة عما كنت أراه وأسمعه فى صباى .

قالت : مهما فعل جدك، وماذا فعل ؟ هو أيضا مظلوم .

شردت نظراتها قليلا، ثم قالت :

- عاش طول حياته لا يملك شيئا رغم ثروة أبيه الكبيرة، وربما كان مثل غيره من أبناء الأعيان ينتظر الميراث . ولم يأت الميراث . وأشهد يوم القيامة أننى لم أسمع يوما كلمة منه أو حتى إشارة صغيرة عن ذلك .

شردت نظراتها مرة أخرى وقالت :

- ولم يدخل مدارس، ولا عرف فلاحة أرض، كان بعيدا، عمل عند أبيه ، يشرف على وابور الطحين، ويأخذ راتبه مثل غيره فى نهاية الأسبوع، وحتى بعد أن تزوج لم يتغير شىء . يطلب من أبيه ما يشترى به ملابس له ولامرأته .

- كان يمد يده على إيراد الطحين .

- لا تقل يمد يده . كان يأخذ حاجته . واحد مثله يذهب هنا وهناك . ويسهر مع أصحابه، وابن الحاج الكامل . اسم طول وعرض لابد أن يكون معه ما يصرفه.

فيما بعد . حين تولى أبوك الأمور، وبعد ان نفض جدك يديه من أى عمل، وقال تعبت . كان أبوك يعطيه ما يكفى . لا ينتظر أن يسأله .

وأتذكر – وأمى تحكى – مشهدا رأيته فيما مضى وأنا فى طريقى إلى حجرة الجد الكبير . أم سالم عند الجد، عادة ما يغلق الباب، هذه المرة كان مواربا، ألمحها متربعة على الحصير، والجد ممدد على ظهره ورأسه على فخذها، كانت تقطر فى عينيه من زجاجة صغيرة.

أكاد أسأل أمى، ولا أسأل .

ينطلق الحنطور فى ظلمة الليل حاملا الجد ورفاقه الثلاثة . الجد وحده فى المقعد الكبير وعصاه بين ساقيه، يتنهد فى راحة بعد أن خرج من البلدة، كان يشكو جوها الذى يكتم أنفاسه " كل هؤلاء الناس وأولادهم وبهائمهم ودواجنهم وفئرانهم يتنفسون فى وقت واحد ويضرطون " . رفاقه محشورون على المقعدين الصغيرين أمامه، الجد لا يخطر له أن يدعو واحدا منهم إلى جواره ليفسح للآخرين، ولاهم انتظروا منه ذلك . يهللون لنكات قالوها مرات من قبل، غير أنها رغبتهم فى المرح بمجرد مغادرة زمام البلدة . ينطوى غطاء الحنطور، ضوء القمر الناعم، وأحواض الزرع على الجانبين وقد مالت عيدان القمح بسنابلها الممتلئة، أشجار متفرقة، ما أن يتقدم الحنطور قليلا حتى يلمحوا من زاوية أخرى هيكل الساقية، وكأنما كانوا ينتظرون رؤيتها حتى يسترخوا فى قعدتهم ويخرجوا سجائرهم المحشوة بالحشيش، الجد لا يدخن، يأخذ السيجارة منهم لمسايرتهم .

- الجو جميل يا حاج . والصحبة حلوة . سمّعنا ضحكتك .

يبتسم الجد . هو فى بداية السهرة، لم يندمج معهم بعد .

يحكون عن الفرح الذى يقصدونه، وفرقة العوالم التى جاءوا بها من المنصورة، والراقصة وصوتها ودلعها . يتساءل الجد إن كان يعرفها؟

ويقولون : هذه لم ترها من قبل .

- بلفتها .

- تريد يديك لتفكها .

- إن لم تعرفك . فلابد سمعت عنك .

الجد معروف بين فرق العوالم، يقال إنه غاوى مغنى وطرب، ما من فرقة التقى بها إلا وقام معها بواجب، وفى موسم المانجو والكمثرى تعد أقفاص منها وترسل مع سائقى الأوتوبيسات إلى جهات مختلفة، ويأتى الرد إلى الجد فى البيت، غلام يقف بالباب ويقول:

- الأسطى فلان يقول للحاج شاكر كله تمام .

يحمل الحنطور دائما عددا من زجاجات الشربات وعلب الملبس الملون لأهل العرس، يدخل بها رفاقه الثلاثة وسط زحام الفرح صائحين :

- وسّعوا . وسعوا . شربات الحاج شاكر أكبر أعيان الناحية .

الجد ما يزال فى الحنطور قرب السرادق، أضواء الكلوبات الباهرة ، وزغاريد، ودقات الدفوف، وجه الجد متأهب للمرح، فمه المفتوح قليلا كأنه يضحك فى صمت .

تخفت الضجة بعد أن احتوى السرادق الجميع، وطُرد الأولاد للخارج ، فدسوا رؤوسهم فى الفراغات بين جوانب السرادق . والعروسان فى الكوشة، وفرقة العوالم اعتلت المنصة الخشبية .

يلمح الجد رفاقه يشيرون إليه، يهبط متمهلا ويسير إليهم ، يدخل من فتحة أمامية، يجد نفسه قرب المنصة ، يصيح أحدهم :

- سلام مخصوص للحاج شاكر .

وتضج الآلات والدفوف بالتحية، وتهز الراقصة وسطها مرات وتتقدم المنصة . ثوبها الأسود من الحرير الخفيف مغطى بالترتر بحلقات ذهبية صغيرة، مشقوق الكمين ومن الذيل حتى الركبة، تنطلق ذراعاها البضتان عاريتين، تتعانقان فوق رأسها، وينكشف إبطها ناعما رائقا، وتدفع بساقها، ترجرج السمانة قليلا وسط الهتافات، تميل إلى الأمام والجد يمر بها، صدر الثوب مفتوح، منبت ثدييها الكبيرين أمام عينيه، يعرف من الصمت وراءه أن النظرات ترقبه، يبعد عينيه وأنفاسه تتلاحق خفيفا، يغير اتجاه يده الممدودة ويدس النقوط فى ربطة رأسها المزدانة بالترتر، وربما شعر بإحساس الراحة الذى شمل الجميع لما أبداه من حشمة، يلتفت ويبتسم لهم ويبادلونه الابتسام . ويأتى أحدهم بمقعد مكسو بالقطيفة من بيت قريب، يحمله على رأسه ويشق الزحام إلى مكان الجد، أحيانا لا يعرفه أهل الفرح، ولا سمعوا باسمه، غير أن هناك دائما من كان يذكر اسم الجد الكبير الحاج كامل فيرحبون به .

لا يطيل الجد من قعدته، يشرب الشربات، ويردد كلمات التهانى لكل من يسلم عليه، ويهز رأسه مبتسما لفتيات يرقصن فى إحدى الزوايا، وتكون عيناه أخذتا كفايتهما من جسد الراقصة وتبادل معها النظرات، ويخرج يصحبه واحد من أصحاب الفرح حتى الحنطور .

عادة يظل المقهى على المحطة ساهرا فى مثل هذه الليالى لحين انتهاء الفرح، وعربة شواء كفتة وكباب وكرشة فوقها كلوب يغطى ضوؤه مساحة واسعة .

يأخذ الجد ورفاقه جانبا بعيدا عن الضوء وعيون البعض من زبائن المقهى ترمقهم فى فضول .

تأتى الفرقة مع منتصف الليل، لقد تبعها حشد من مكان الفرح، راح يتفرق خلال الطريق، وتكون السيارة التى تستأجرها الفرقة قد عادت منذ قليل وانتظرت بجانب المقهى، عادة ما تكون السكة إلى الفرح ضيقة لا تسمح بمرور سيارة . فى لحظات يستطيع رفاق الجد أن يأتوا بسائقها ليشاركهم القعدة .

أعضاء الفرقة _ خمسة غالبا بالراقصة _ مرهقون، غير أنهم يهللون فرحا لرؤية الجد الذى يبدو لحظتها كأنما أفاق من خموله، ينهض مرحبا، مناديا على مقاعد وقد تألق وجهه وتهدل شاله الحريرى على صدره . الراقصة وقد عرفت أن العين عليها تتهادى نحوه، وتختار مقعدها فى دلال بجانبه، الجد يفيض بشرا، خفيف الحركة، يميل نحوها مبتسما، تتوالى أطباق الكفتة والكباب .

يستأذن الرفاق الثلاثة وأعضاء الفرقة فى الابتعاد بمقاعدهم قليلا لأنهم سيدخنون حجرين والرائحة تضايق الحاج تحلقوا على بعد خطوات حول ترابيزتين متجاورتين عليها الأطباق، ودارت أكثر من جوزة بينهم .

الجد ومعه الراقصة يأكلان، يمد يده بإصبع الكفتة إلى فمها، تنفرج شفتاها، عيناها فى عينيه، تبتسم خفيفا وتقضم طرف الإصبع، الجد وقد ارتخى فمه وامتلأ باللعاب يهمس :

- قضمة ثانية . كبيرة .

يميل رأسها جانبا وتنظر إليه عيناها اللامعتان المكحولتان، تقضم الإصبع .

- كفاية يا حاج .

الجد مقبل عليها بصدره الضخم يكاد يلتصق بها :

- واحدة كمان . كبيرة .

تلمس الإصبع بطرف لسانها وتبتعد، ثم تقبل عليه . تأخذ ثلثه إلى فمها، تطبق شفتيها ساكنة، يرتج جسدها بضحكة مكتومة، تقضم الإصبع وتمضغه فى بطء، الجد يلقى ما تبقى منه فى فمه، يتنهد فى عمق مسترخيا :

- أيه يا حاج . بتمتحنى ؟
- أمتحنك ؟ وانت ست الستات .
- سمعت عنك كتير . بتخوفنى .

يميل عليها وذراعه على ظهر مقعدها :

- وسمعت أيه ؟

تزحف يده إلى كتفها، تتمهل عند رقبتها ثم تنزلق إلى فتحة الصدر، تتحسس إصبعه المجرى بين ثدييها المبتل بالعرق، تميل رأسه عليها، تبتعد، تغمغم :

- العرق . الدنيا حر . وطول الليل برقص .

- عرقك حلو .

تنزلق يده قليلا . تهمس :

- زوجي بيبص علينا .

- مين فيهم ؟

- لابس جاكتة .

أحيانا تتزوج الراقصة بواحد من الفرقة، يميز نفسه عنهم بسترة يلبسها فوق الجلباب، يطل من جيبها الصغير طرف منديل أحمر أو أزرق، وعادة يمسك العود، يفتتح الحفل بعزفه المنفرد، جالسا على مقعد أمام أعضاء الفرقة وساقه فوق الأخرى، الراقصة تقف بجواره مستندة بيد إلى ظهر المقعد، تغمض عينيها قليلا، ويتمايل رأسها طربا مع نغمات العود .

وسواء صدقها الجد أو لم يصدقها كان يختطف نظرة إليهم بطرف عينيه، ويراهم مقبلين على الطعام والجوزة، وصاحب السترة شمر كميها وأعطاهما ظهره أو جنبه .

تنزلق يد الجد إلى مدى أبعد، العرق غزير تحت ثدييها، ما يكاد يحتويه في كفه حتى تبتعد، تنحني وكأنما تلتقط ما وقع منها، وتتحرر بذلك من ذراعه، تهمس في انحناءتها :

- زوجي يا حاج . يرضيك ؟

يعتدل الجد في جلسته، هي أيضا تسترخي في مقعدها وقد خبت لمعة عينيها، وبدا الإرهاق على وجهها، تمد يدها تتحسس صدر الجد :

- مسيرنا نتلاقى يا حاج .

وتهمس بعد لحظة :

-الواحدة منا . وهي بعرقها . يعني . ماتزعلش .

يخيم عليهما الصمت، تسقط ذراعها بجوارها كأنما. سيغلبها النعاس .

الخلاء يمتد بعيدا . لاشيء سوى أحواض الزرع، وبناء مهدم على مرمى البصر، بجانبه شجرة، ومقام لأحد الأولياء، نافذته بلون قاتم، وقضبانها تتلقى رذاذا من ضوء الكلوب .

وتكون قطعة الحشيش التي يحملها واحد من رفاق الجد قد نفدت، والأطباق خاوية، لم يتبق بها غير فتافيت من البقدونس الذي ينثرونه فوق الكفتة والكباب وقليل من مياه السلطة .

يصعد أعضاء الفرقة واحدا بعد الآخر إلى العربة، الراقصة آخرهم، تصعد مستندة بيدها إلى كتف الجد، وتتحرك العربة على وعد بلقاء قريب .

ينطلق الحنطور عائدا، الرفاق الثلاثة وقد استخفهم المرح يتبادلون الغناء، ونسمات طرية تلفحهم، يقول واحد منهم :

– وطول الوقت شايفك يا حاج .

ويقول آخر :

– انما تمام التمام .

يبتسم الجد متحسسا خده حيث لمسته أنامل الراقصة وقرصته خفيفا قبل اختفائها فى السيارة ويقول :

– آه . ليلة جميلة .

يخطر لى أحيانا من التفاصيل الكثيرة التى يرددها الناس عن سهرات الجد أن رفاقه الثلاثة ربما كانوا يحكون من ورائه ما يفعلونه من قبيل الزهو .

لا ينام الجد الكبير قبل عودة الجد، يقعد فى فراشه مكتفيا بضوء المصباح الصغير الذى يتسلل من الممر عبر باب الحجرة المفتوح، يدعك ساقيه الواهنتين من حين لآخر مرهفا سمعه للأصوات فى الخارج وكانت تخفت وتتباعد مع تقدم الليل، فمه الأدرد فى حركته الرتيبة كأنما يلوك شيئا على مهل . يتمتم :

– وينامون !

ويهز رأسه خفيفا فى أسف، ويتمتم مرة أخرى :

– آه . سرعان ما ينامون !

تغلبه نوبة من النعاس، ما أن يميل جذعه جانبا ويوشك على السقوط حتى ينتبه، ومرات يريح ظهره للوراء ويغفو طويلا، يوقظه صوت كلب شارد، وكأنما يخشى أن يكون الجد جاء أثناء غفوته، كان يتجه إلى الباب، ويمد رأسه منصتا، وحتى يتأكد أكثر يقف بباب حجرة الجد، ينتظر حتى تعتاد عيناه الظلمة داخلها ثم يعود إلى فراشه، وفى كل مرة كان يلوم نفسه .

– آه . وشخيره . كنت سمعته .

رغم حذرى، كانت أذنه تلتقط صوت حركتى حين أتسلل من باب

الوسط، أكون فى طريقى إلى السلم لأصعد السطح، ويأتى صوته يناديني وأخى، وقد ظن أننا معا، ألبد ساكنا فى مكانى، وينادى مرة أخرى، يغرينا بالحواديت التى لم نسمعها من قبل، وأتردد فى الذهاب إليه، الحواديت فى الليل تختلط فى رأسه فلا أفهم شيئا، يحكى عن نخلة ويقول إن ما تطرحه من جميز كان مسكرا، وحتى وهو يحكى عن الحمارة العمياء أجده يقول إنها جلست إلى الطبلية وقالت كذا وهى تأكل، يبدأ بشىء ثم يحكى عن شىء آخر، وحين أنبهه يلتفت نحوى، وتمر لحظة وهو يحدق فى وجهى، ثم وكأنما تذكرنى، تنفرج تقاطيع وجهه ويغمغم :

– طيب . طيب . نحكيها من الأول .

وحين يغلبه النعاس أتسلل على طرف قدمى، وما أكاد أصل إلى الباب حتى يناديني. ومرات كان يقطع الحدوتة ويسألنى:

– أين تظن جدك ذهب؟

– وما يدرينى .

– ألم تره أبدا فى أى مكان؟

– أوقات أراه فى الشارع.

– وغير الشارع؟

– غير الشارع . غير الشارع . غير..

– مقهى . دكان . أى بيت؟

– ولا هنا . ولا هناك.

وينحنى، وتطول انحناءته، وأميل برأسى لأرى إن كان نعس، ويسألنى إن كنت أحب الجد ؟

وأقول إننى لا أحبه .

ويسألنى عن السبب ؟

وأقول إنه تخين وعرقه كثير .

وأكون زهقت فأقفز منطلقا من الباب .

على السطح أرص قطع الحجارة _ التى سبق أن أعددناها أنا وسالم _ فى جيشين متقابلين، الحمراء فى جانب والبيضاء فى الجانب الآخر . وأكون مستغرقا فى المعركة حين أسمع صوت الجد عائدا، وأتسلل إلى السلم، وأقبع على درجة تسمح لى بالتلصص على مدخل الحجرتين .

ضجة الجد المعتادة لدى رجوعه، لا يبدو حريصا على راحة الجد الكبير الذى يجاوره أو أى أحد آخر، كان أبى يقلق فى نومه، أسمعه من حجرتى يغمغم فى صوت ناعس :

– رجع ؟

وتهمس أمى :

– آه رجع .

ويعودان إلى نومهما .

يتجشأ الجد بصوت مرتفع ويتأوه، يلقى بحذائه فردة بعد الأخرى، تصطدم بجانب الدولاب كأنها دقات طبل، يخرج والقبقاب فى قدميه إلى المرحاض، يترك بابه دائما نصف مفتوح لهواء يدخل إليه، تدوى ضرطته وسط السكون، يقف لحظة أمام المرحاض يعدل

لباسه، جسده الضخم العارى فى الضوء الخافت، حجرة الجد الكبير على بعد خطوتين منه، بابها موارب، يخيم عليها الصمت، لا يلتفت إليها الجد، يمضى إلى حجرته، صرير الألواح الخشبية وهو يعتلى السرير، زفيره كأنما يتأهب للنوم، ويسود الصمت لحظات . يأتى صوت الجد الكبير هادئا :

- وأين كنت ؟

الجد لا يجيب .

يعود الجد الكبير للسؤال، والجد لا يجيب .

يقول الجد الكبير إنه لابد واحد من الأماكن الوسخة التى اعتد عليها .

ويزمجر الجد :

- خليك فى حالك .

- كل ليلة سهر حتى الفجر . ولا ليلة واحدة واحدة تقضيها فى البيت .

- أفضل من القعاد جنبك .

- طب تساعد فى حاجة . ساعد ابنك .

- اشتكى لك ؟

- لم يشتك . إنما يكون عندك نظر .

- لما يشتكى لك قل لى . وسيبنى أنام .

صرير الألواح الخشبية في حجرة الجد، ربما يغير رقدته معطيا ظهره للباب كعادته حين يريد أن ينهى الكلام مع الجد الكبير .

يسأل الجد الكبير بعد صمت :

- ومن قابلت الليلة .

الجد لا يرد . يعود الجد الكبير للسؤال . يزمجر الجد :

- لم أقابل أحدا .

- ولا أى واحد أعرفه ؟

- كل من تعرفهم ماتوا .

- من ؟

- كلهم .

- دسوقى لم يمت .

- دسوقى . دسوقى . ولا غيره على لسانك .

- رأيته ؟

- دسوقى فى بيته .

- يخرج ؟

- لا يخرج . ولا يمشى . ولا يتكلم .

- ولا مرة تزوره ؟

- ولِمَ أزوره ؟ كان صاحبى ؟

- واحد فى مرض .

- ولِمَ لا تزوره أنت ؟

- صحيح . لم لا أزوره أنا .

أتخيل الجد الكبير فى فراشه منحنيا يدعك ساقيه، وتزداد انحناءته حتى تصل يداه إلى قدميه الكبيرتين المفلطحتين، يتحسس

الشقوق العميقة بكعبيه، يقول أبى إنه ظل أمدا طويلا لا يلبس شيئا فى قدميه، وحين اقتنى الحصان اشترى حذاء .

يميل الجد الكبير فى كل مرة يتكلم محدقا النظر خلال فتحة الباب الموارب :

– القصد . لم تر أحدا . كما خرجت عدت .

وأتأهب لمغادرة مكانى وقد أحسست أن نقاشهما انتهى، وربما أراح جدى الكبير فى هذه اللحظة ظهره للوراء استعدادا للنوم، ثم أسمعه يسأل :

– والشونة القديمة، نقلوها ؟

– وما أدرانى ؟

– ولا مرة مشيت هناك ؟

– مشيت ولم أرها .

– لابد أنهم نقلوها، ومنعم اشترى المكان . طول عمره وهو يحلم به . شادر خشب على شط النهر، وتأتى المراكب، ساعة زمن تفرغ حمولتها فى الشادر آخر راحة .

– أية مراكب ؟

– المراكب التى تأتى بالخشب .

– ومن ينقل الآن خشب بالمراكب، وعربات النقل ؟ والقطار ؟

– صحيح . القطار . ركبته مرتين .

– بدأنا نخرف . وشادر منعم هناك على شط النهر من سنين .

– يا ساتر على لسانك . الله يرحمها . كانت تقول إن لك لسان عنزة .

– من ؟

– غنمة . لسان غنمة .

– ومن قالت ؟

– أمك .

– أمى لا تقولها .

صرير خشب السرير وكأنه الجد تحرك بعنف فى رقدته، أنظر من فوق درابزين السلم، ألمحه متربعا على السرير ملتفتا ناحية الباب، يقول محتدا :

– ليست أمى من تقولها .

– ولم لا تقولها ؟

– انت عارف من يقولها .

– عارف أيه ؟ قصدك زينب ؟

– هى أو غيرها . واسكت .

– زينب !

– فضها سيرة . خلى الليلة تعدى على خير .

ويأتى صوت من البيت الثانى وكأنه باب يفتح، يقول الجد الكبير :

– عاجبك ؟ ابنك صحا .

- أنا برضه اللى صحيته .

ويسود الصمت، الجد وكان قد دلى ساقيه من فوق السرير عاد ورفعهما .

وكنا بحجرة الجد الكبير أثناء النهار، واشتبك هو والجد بالكلام التفت الجد الكبير ناحيتنا غاضبا :

- وأنتما، ماذا تفعلان هنا ؟

اتجهنا ناحية الباب، أشار لى فى حدة :

- تعال . آه أنت . اذهب إليه . لا تخف منه . اذهب . افتح بابه وقل له فى وجهه من سرق هدومه وهو يستحم فى النهر . العجل . سرقوا هدومه . وكان أكبر منك بسنتين . اذهب ، قل له .

ذراعه التى يشير بها ناحيتى ترتعش فى شدة، فمه أيضا، والرذاذ يتناثر منه، يقذف بساقيه خارج الفراش ثم يعيدهما :

- ويومها كان آخر انبساط . يضحك . يزفونه عاريا للبيت ويضحك .

- سبحانه يعطى من يشاء . أخذت عمرك وعمر غيرك .

- وأمه..

- لا تأتى بسيرة أمى .

- وأمه تغطيه بطرحتها وتخفيه فى حضنها، خايفة عليه من الحسد .

- هبل . والله هبل . لن أرد عليك .

وجاءت لحظة غفل فيها الجد الكبير عنا، وانطلقنا من الباب .

لا أحس بأبى حين يكون بالبيت، يتحرك كشبح، يفاجئنى ظهوره، وأسأله فى دهشة متى جاء ؟ أو متى صحا من النوم ؟. يرمقنى بنظرة فاترة ويمضى .

مواعيده دقيقة تحفظها أمى، وجعلتنى بإصرارها وملاحقتها أعرفها، لا يجمعنا الفطور، نخرج أنا وأخى إلى المدرسة وهو ما يزال فى الفراش وباب الحجرة مغلق حتى لا تقلقه أصواتنا، فى تلك اللحظات تتحدث أمى معنا بالإشارة، رغم ذلك كنا نفاجأ أحيانا بأبى واقفا بباب الحجرة ينظر إلينا غير غاضب، وتلومنا امى بنظراتها ثم تنصرف عنا لتسأله إن كان يريد فطوره الآن ؟

قبل موعد غدائه تغادر أمى قعدة النسوان بالحوش إلى البيت الثانى وتغلق باب الوسط وراءها، تشطف نفسها وتغير ملابسها وتنتظر مجىء أبى جالسة على الكنبة، والطبلية معدة على الحصير، يأخذ أبى قيلولة بعد الغداء، ونكون عدنا من المدرسة، تخرجنا أمى من البيت، أو تغلق علينا باب حجرتنا، ترقد مع أبى حتى يذهب فى النوم وتعود إلى الحوش .

مع بداية الليل يستعد أبى للخروج، يلبس البدلة كاملة، حتى حين يستقبل ضيوفا بالبيت، تنظف له أمى الكتفين بالفرشاة، ويوما قالت له :

- تنقصك المنشة

يضحك أبى، تدور حوله والفرشاة بيدها، شعرها الكستنائى يتناثر فوق كتفيها، وعندما تنحنى لتصل إلى البنطلون كان يسقط على وجهها، تزيحه جانبا بيدها . قالت :

- صحيح . لم لا تمسك واحدة ؟
- لا تعجبنى .
- مع أن شكلها جميل .

تتبعه حتى الباب، ثم تعود لتجلس على الكنبة، تأتيها صاحباتها من البيوت الكبيرة فى البلدة، ملتفات فى الملاءات، يصحب الواحدة منهن غلام كبير يتركها لدى فتح الباب، ويعود ليأخذها مناديا اسمه بعد أن يدق الباب .

كن يعرفن موعد عودة أبى، ويغادرن قبل مجيئه، حين يتأخر مرافق واحدة منهن كنت أقوم بتوصيلها، وعادة ما نلتقى به فى الطريق قادما إليها .

أبى شديد النحول، محنى الكتفين، كانت النسوة فى الحوش يقلن إنه أخذ من أمه _ الجدة زينب _ قسمات وجهها الرقيقة المرهفة، وعينيها عميقتى السواد، وحتى لمعتهما، وأهدابهما الطويلة، وكنت أسمع أنه صاحب مرض من صغره، تنتابه نوبات قىء ودوخة منذ كان فى العاشرة .

تقول أمى : وسبحان الله . الاثنان . جدك وأبوك، تربيا بعيدا عن البيت، جدك عند أهل أمه، وأبوك بعده بسنين طويلة عند أهل أمه أيضا .

وتقول متعجبة إنها لم تنتبه لهذا التشابه فى حياتهما عندما حكت لها النسوان فى الحوش، الآن فقط انتبهت وهى تستعيد ما قلنه .

- واحدة تقول إن جدك الكبير كان يزور جدك شاكر فى صغره عند أهل أمه، وواحدة تقول إنه عمره ما زاره ولا قرب من بيتهم . أهل جدتك الكبيرة فهيمة لا يحبون جدك كامل . يكرهونه، وأنت عارف السبب . ووصلت كراهيتهم أن أى واحد منهم كان يترك المكان الذى يتصادف أن يكون به جدك كامل، وحتى لو تقابلا فى شارع . كل واحد فى حاله وكأنه ما شاف الثانى، آه . لا أصدق أن جدك كامل، ولا فى طبعه أن يذهب إلى بيتهم ليرى جدك شاكر . وكان مشغول طول اليوم . جدك كامل . لا أحد يراه لأيام طويلة . وكان جدك شاكر يأتى للحارة من يوم للتانى، يحوم حول البيت المغلق، يحاول أن يدفع الباب والشبابيك ولا تستجيب له، وماذا كان يريد من البيت . الله أعلم . البيت خرابة، لا شىء به يؤكل، حتى الزير والقلل نشفت واخضرت، والتراب فى الحوش والحجرات أكوام، ويأتى جدك كامل، يبات الليلة ويمشى، يغيب بالأيام ويأتى لليلة ويمشى. هو الذى اعتاد النوم فى الخلاء تحت الشجر ما كانت تضايقه ليلة بين الفئران فى البيت، يغير ما يلبسه، ويرمى ببقجة هدومه المتسخة لواحدة من الجيران تغسلها عندها، ما كان ليشعر بحرج معهن وقد رآهن مئات المرات وعرفهن بالاسم حين كن يتجمعن فى حوش البيت مع امرأته جدتك فهيمة . ورغم كثرة ما يملك ظل هو كامل الذى عرفوه حين كان على قد حاله، يكون قادما فى الليل وعائلة من جيرانه تتناول عشاءها على المصطبة، ويدعونه لمشاركتهم، يتمهل متسائلا عما يأكلون ؟

ويقولون : باذنجان مقلى . أو ملوخية .

ويصعد المصطبة إليهم مغمغما : آه والله . لم أذقها من شهور .

يقضي الجد شاكر سحابة النهار أمام البيت المغلق يلعب مع أصحابه القدامى من الأولاد ويأكل معهم عندما يأكلون ثم يمضي . ومرات يلتقيان . جدك كامل يمشي ودماغه مشغولة بألف حاجة، يفاجأ بمن يسير بجواره أو يقف جنبه وهو يفتح الباب، ينظر إليه لحظات شاردا ثم يقول :

- آه . جئت .

ويدخلان البيت، لا يتحمل جدك شاكر البقاء أكثر من ساعة زمن، لا يعرف أحد ماذا يفعل فيها، ولا ما إذا كان يحكي شيئا لجدك كامل، ثم يخرج منطلقا إلى بيت أهل أمه، ظل هناك حتى بلغ العشرين، وجاء قبل زواجه بشهور حين أعطاه جدك كامل وابور الطحين ليشرف عليه ، وكان يريد إعطاءه المناحل أيضا وجدك شاكر رفض - ضحكت - يقولون إنه صاح في غضب :

- النحل ؟ أروح للنحل ؟

حين كان أبوك يتذكرها يموت من الضحك، يقول إن جدك شاكر لا يخاف من شيء في الدنيا قدر ما يخاف من الدبور والنحل، يقفز هلعا كلما سمع طنينها بجواره . هو الذي أشرف على تجديد البيت لزواجه، وبعدها استقر جدك كامل معهما في البيت .

نفس الحكاية مع أبيك، غير انه ذهب إلى أهل أمه وهو أصغر سنا من جدك شاكر حين ذهب ، كان في عامه الثاني ، جدك شاكر لم

يزره أبدا، وكان هو أيضا يأتي ليحوم حول البيت في النهار، وحين يقولون له إن أباه نائم بالداخل يظل بعيدا عنه، يلعب مع الأولاد قليلا ثم يمضي، صحته لا تساعده على اللعب طويلا، وأحيانا يقلق عليه أهل أمه فيرسلون من يعود به، لا يدخل البيت إلا في المرات التي يظهر فيها جدك كامل، أبوك نفسه لا يعرف السبب . حين سألته قال إنه لا يتذكر، وربما كما قال إن جدك شاكر بطبعه كان متجهما ولا يرحب به حين يراه، جدك كامل لا يكف عن الذهاب لرؤية أبيك، يأخذه أمامه على الحصان في جولاته بين الغيطان، ومرات يأتي به ليبيت معه في فراشه، يقول أبوك إنه كان يفرح بالأوقات التي يقضيها مع جدك كامل رغم وجهه الجامد الذي لا يكاد يبتسم، ويده الخشنة التي يتحسس بها خديه، يتمدد في حضنه، وما أن ينتهي من حدوتته الأولى حتى يكون أبوك راح في النوم .

أبوك كان متعلقا بجدك كامل، ينتظر مجيئه عند أهل أمه، وحين يتأخر أياما يأتي إلى البيت للبحث عنه، يلعب مع الأولاد قليلا ويعود . يوما انطلق يبحث عن جدك كامل وسط الغيطان وتاه، تأخر الوقت، وخرج أهل أمه يسألون عنه، وكان هناك من أبلغ جدك كامل، انطلق بحصانه كالمجنون .

يحكي أبوك ضاحكا، يقول إنه رقد في ظل شجرة بالمصلى وأخذه النعاس، كان يعرف ان جدك كامل سيأتي إليه، فكثيرا ما استراحا في المصلى أثناء تجوالهما . وعندما أراد أهل أمه ان يمنعوه من الخروج تصدى لهم جدك كامل :

"اتركوه . كل منا يفهم الآخر

أحيانا يعود جدك شاكر مبكرا إلى البيت، ويكون أبوك مع جدك كامل فى حجرته وقد أضاءا المصباح وأشعلا قوالح فى الموقد يشويان عليها "أبو فروة" التى يحبها أبوك ويحتفظ بها الجد كامل له فى ربطة بالدولاب، كل مرة يدخل أبوك الحجرة يسحب المقعد إلى الدولاب، وينكش باحثا فى الرف، وكان يفاجأ أحيانا بأشياء أخرى مع أبى فروة. ملبس ملون . عسلية.

يلتفتان على صرير باب الحجرة، ويريان الجد شاكر واقفا ينظر إليهما، ينحنى ملتقطا حبة أبو فروة من الموقد، ويسأل أباك :

– تحبها ؟

ويهز رأسه خفيفا، وينظر هنا وهناك ويغادر الحجرة، بعدها بقليل يسمعانه يفتح باب البيت خارجا .

عندما أنهى أبوك دراسته الثانوية أخرجه جدك كامل من التعليم، قال إنه يريد من يساعده، وجاء به ليقيم معه، وعاش الثلاثة فى البيت بدون واحدة ترعاهم حتى جئت أنا إليهم، كانوا يعتمدون على خدمات النسوة من الجيران .

أسأل أمى : وأبى . أين كان ينام ؟

– كل واحد كانت له حجرته . لم يكن هناك أيامها حجرة دواجن ولا حجرة خزين .

ما لم تحكه أمى التقطته أذنى فى صباى من ثرثرة النسوة فى الحوش، كن يحكين ويضحكن، وتضحك أمى، وتتلفت لترى إن كنت منتبها إليهن .

حجرة الجد شاكر كانت بجوار الباب الخارجى، ومرات يعود فى وقت متأخر من الليل برفقة واحدة ملتفة بملاءة من رأسها لقدميها، يفتح الباب ويدخل وهى وراءه، فى هذا الوقت تكون الحارة اسكت مس، والجد كامل وأبى فى عزّ النوم، ويتصادف أن تلمحها واحدة من الجيران أيقظتها حبسة بول، أو صعدت للسطح هربا من الحر، وسمعت صوت مشيهما فى الحارة أو صوت الباب يفتح، واسترقت النظر، تتهامس بما رأته مع جاراتها ويسكتن . الجد كامل له معزّة كبيرة فى نفوسهن، ولا يردن للحكاية أن تصل إلى سمعه، يعلم الله ما سيحدث، والجد شاكر ماذا ينتظرن منه غير ذلك ؟ يكفى أنه لم يفعلها أبدا مع واحدة من الحارة، أو حتى الحارات القريبة، عنده وابور الطحين الذى يشرف عليه، وحوله النسوان أشكال وألوان، يأتين من بلاد مجاورة أو من ضواحى البلدة منهن النظيفة وغير النظيفة، والعمال معه فى الوابور قادرون على القيام باللازم . هن لم يرين واحدة منهن، غير أن الواحدة التى تبيت خارج بيتها، يعنى، ولا داعى للكلام . على الأقل واحدة بلا رجل أو حاكم يحكمها .

تتسلل المرأة فى البكور، وتظن أن لا أحد رآها، ويكون الجد كامل وأبى سبقاها بقليل قاصدين الغيطان . حتى كانت مرة، جاء الجد بواحدة . صوتها المرتفع أيقظ الكثيرين ومنهم جدى كامل وأبى، ظل كل منهما فى حجرته لا يرغب فى التدخل حتى تمر الليلة على خير، وكانا يأملان أن ينهى الجد الموقف بعد ارتفاع صوتهما، المرأة تقول كلاما لا تقوله واحدة، وصوتها به خشونة .

يقول الجد شاكر : رائحتك . اشطفى نفسك .

- آه . الآن تقول رائحتك . وأين الماء ؟

- عندك القلة .

- صب علىّ .

- صبى على نفسك .

صمت، ثم صوت المرأة :

- الرائحة وراحت . ساكت ليه ؟

- صبرك بالله .

- طيب . صبرت .

صمت . المرأة فيما يشبه الزمجرة والصياح :

- وآخرتها . يدك توجعنى . أعطنى فلوسى وأمشى .

- انتظرى للفجر .

- ولا دقيقة .

- لن تجدى ما تركبينه . لا سيارة ولا قطار .

- أية سيارة نقل . لن يرفض سائقها . على الأقل لن يدارى خيبته ويقول رائحتك .

صمت، ثم صياحها :

- جنيه ونصف ؟

- اتفقنا على ..

- آه . كان قبل القلة . واشطفي . ويدك التى هرست صدرى وبطنى .

الجد كامل يسعل ويدق الباب خفيفا، أبى خرج أيضا من حجرته ووقف خلفه بخطوة، المرأة - وربما كانت بجوار الباب - فتحته بسرعة تقف أمامهما عارية . تضحك :

- ثلاثة ؟

تستدير لجدى شاكر :

- وتقول جنيه ونصف يا مفترى ؟ ومن غيركم فى البيت ؟

تطل برأسها خارج الباب، تنظر شمالا ويمينا، تتحسس بيدها صدر الجد كامل، تقول فى دلال :

- أنت مجانا . رجل ولا كل الرجال .

وتداعب خد أبى المذهول بإصبعها :

- وانت كمان مجانا . قمر . حلاوتك تدوخ .

وتقف جانبا كأنما تدعوهما للدخول . ينظر أبى من فوق كتف الجد كامل إلى داخل الحجرة، الجد شاكر بملابسه الداخلية يجلس على حافة السرير مدليا ساقيه .

الجد كامل يمد يده بورقة بخمسة جنيهات :

- خذى واخرجى .

النبرة الحازمة فى صوته، تبتسم المرأة له وتستدير للداخل، تلتقط قطع ملابسها المتناثرة . تصيح بالجد شاكر :

- ناولنى الستيان . وراءك على السرير .

بشائر الفجر فى الأفق، تخطو المرأة فوق العتبة إلى خارج البيت .

كانت عجفاء، تلبس كنساء المدن، جيبة قصيره وحذاء بكعب عال، والألوان كثيفة على وجهها، تلمح البعض من الجيران الذين تواروا بمداخل البيوت لدى خروجها، بيدها طرحة كادت تلفها حول رأسها ووجهها :

- ويقول لى خذى الطرحة دى تدارى بها رأسك ووجهك . قال يعنى . بلا خيبة .

قذفت بالطرحة نحو أقرب الجيران إليها :

- خذوا . اعطوها له .

أنتبه وأنا فى حجرتى إلى صوت أبى تغلب عليه حشرجة البكاء، يشكو لأمى من فضيحة جديدة للجد شاكر سمع بها الليلة، أمى تهدئه. تقول إن الأمر لا يستحق، الناس لم تعد تهتم بما يفعله الجد كما فى الماضى .

يقول أبى إنه لا يتحمل نظراتهم إليه، ولا يستطيع أن ينظر فى وجوههم حتى وهو يحييهم . يهدأ فى النهاية، وتعمل له أمى عصير الليمون الذى يحبه، وينام .

كان يشارك فى العديد من المجالس، منها المجلس المحلى، مجلس المدينة، الجمعية الزراعية، ويوم يقصد المدينة لأحد الاجتماعات تعد له أمى حقيبة صغيرة بها غيار وجلباب للنوم وقميص، ويستأجر عربة تقف بانتظاره أمام البيت، كان السائق يسمح لى باستخدام آلة التنبيه .

وكان الكثير من الأهالى يحتكمون إليه فى خصوماتهم . فى مثل هذه الليالى تعد أمى الصالة الكبيرة لاستقبالهم، ويبدو أبى وقد استعاد حيويته، يتألق بشرا، يتحرك هنا وهناك، ويطل علينا أنا وأخى فى حجرتنا، يقرأ عناوين بعض الكتب، ويسوى وضعها على المكتب . ويقول لى :

- فكرنى أشرح لك موقعة التل الكبير .

- وما هى ؟

- سأقول لك وقتها .

يشير لى أن أفتح الباب حين يأتى المتخاصمون . كنت أقودهم إلى الصالة الكبيرة، وأحتمل ما يقولونه لى من كلمات المديح، وأرى أبى متأهبا فى الصالة الصغيرة، وقد وضع عباءة بنية مطرزة الحواف فوق كتفيه، ودس قدميه فى خف من الجلد . كان يتصدر القعدة والمسبحة فى يده، أحمل لهم الشاى، ثم القهوة، وأحيانا أطباق مهلبية . أمى متربعة على الكنبة فى الصالة الصغيرة تنتظر أن يطلب شيئا، كان يعود فى النهاية بشوشا ضاحكا، وتسأله أمى التى سمعت كل ما قيل :

- خير ؟

- خير إن شاء الله . أما حكاية . إنما غريب

ويحكيها لها حين تضمهما الحجرة .

أسمع الجد كامل ينادى أبى . يكون الوقت ليلا، وأبى يوشك ان يدخل حجرته، أحيانا يسمح لى بمرافقته، يفتح باب الوسط، نسير فى الممر على ضوء المصباح الصغير، حجرة الجد شاكر مظلمة، الجد كامل فى الفراش، ساقاه ممدودتان يدعكهما . يقعد أبى بجواره . يقول الجد كامل :

- زمن طويل لا أراك .

- مشاغل يا جدى .

- كان الله فى العون .

ويقول أبى إن ما يلبسه الجد خفيف والليل بارد . فَلِمَ لا يرتدى جلبابه ؟

يشير الجد كامل بإصبعه دون أن يلتفت إلى وعاء النار المطفأة فى ركن الحجرة :

- تكفى .

تستقر عيناه قليلا على وجه أبى، يسأله عن قطع أرض فى الطرف الشرقى، يقول إنها خطرت على باله فى الصباح، يذكر إنها كانت مالحة .

يبتســـم أبى : آه . كانت . أخذت ما يكفيها من الماء . زرعناها أرزا .

– خير ما فعلت .

يطرق الجد كامل ويصمت، يطول صمته ثم يقول فجأة :

– وعبد العاطى ؟ تراه ؟

– أراه . كل يومين تلاتة .

– لو أنه سمع كلامى .

يعـــود إلى صـمـتـه . أبى لا يســـأل كـأنما اعـتـاد طريقتـه فى الكلام، أحيانا يكمل الجـد كامل كلامــه وأحيانا لا يكمل . يهز رأسـه من حين لآخر، مستغرقا فى صمته . يتنحنـــح أبى ويقف . يلتفت الجد كامل إلينا، وكأنما فوجىء بوجودى، يمد يده نحوى، أسلمه وجهى، يداعبه قليلا ويتركنى .

يغمغم أبى فى عودتنا : " لا يفيق تماما إلا مع جدك شاكر

أتصفح أوراق العائلة، كانت فى ظرف أصفر كبير، اهترأت جوانبه ودكن لونه . عرق الأيدى التى تداولته، أحتفظ به كما هو، وضعته فى ظرف بلاستيك لحمايته .

لا أجد صورا لأفراد العائلة، ربما لم يحتاجوا إليها، الجد كامل فقط، صورة له فى شبابه, متآكلة الأطراف، أشبه بالصور التى تلتقط على رصيف مبنى الشرطة أو المحكمة . بدا فى الصورة متجهم الوجه وعيناه مفتوحتان على آخرهما، وتلفيعة كالحة تحيط برقبته، نسل طرفاها، وانزلقت بعض خيوطها على صدر الجلباب، ذقنه غير حليق، وشاربه متهدل .

بصمة الجد كامل على عدد من الصكوك . ملكية الأرض . البيت. وابور الطحين، إبهامه الضخم، أتأمل البصمة، وأتذكر يده المعروقة التى جفت وتقوست أصابعها حين كان يضعها على رأسى .

لا أوراق تخص الجد شاكر فى الظرف غير قسيمة زواجه، لم يرغب على ما يبدو أن يخلف وراءه أثرا، توقيعه على القسيمة الذى كان يحفظ رسمه ولا يكتب غيره .

أوراق كثيرة بخط أبى وتوقيعه، عقود شراء وبيع، إيصالات، كمبيالات، كعوب دفاتر شيكات، خطه الجميل الواضح، المائل قليلا، ثمة خواطر كان على ما يبدو يكتبها من حين لآخر على ورق أزرق ناعم، أغلبها عن هيامه بأمي، وربما أراد أن يجرب الكتابة وبدأ بأمي أقرب الناس إليه :

أنت واحتى التى تأوينى .

الظل الذى يرفرف على رقدتى .

نهر حنان يغمرنى .

أنت شمسى وقمرى .

وردتى البيضاء .

عندما قرأتها لأمى أول مرة ندت عيناها بالدموع، وسألتنى عن معنى كلمة واحة .

قالت من خلال بكائها :

– ولا أسمعها منه . ولا كان بيان عليه. لم يقل غير الوردة البيضاء .

بعدها كانت تطلب منى أن أعيد قراءتها .

عندما تولى أبى الأمر فتح العديد من الدفاتر، كل محصول له قسم خاص فى الدفتر، وكل صنف من الفاكهة وكل نوع من البهائم، وكان هناك عدد من الصفحات لبند الهدايا، دون بها عدد أقفاص الفاكهة المهداة وتاريخ إرسالها وأسماء المرسل إليهم من مسئولين فى المدينة أو المركز .

وأجرى تغييرا بالزريبة، وكانت بجوار وابور الطحين، وملحق بها غرفة كبيرة يحفظون داخلها العدد والآلات التى تم استبدالها، كانوا يلجأون إليها من حين لآخر بحثا عن قطع غيار .

اقتطع أبى جانبا من الزريبة، وأشاد مبنى من حجرتين وصالة للموظفين الذين يمسكون الدفاتر، وخصص لهم ركوبتين للمرور على الغيطان، وأطلق اسم " تفتيش كامل الزراعى " على أملاك الجد الكبير .

كان أبى يذهب إلى الإدارة – كما يسميها – مرة كل يومين أو ثلاثة، يجلس مع الموظفين ساعة زمن ويمضى، وقل ذهابه بمرور الوقت، اكتفى بمرة فى الشهر، وتفرغ بذلك لأعبائه العامة،وكان متحمسا لها وتأخذ كثيرا من وقته .

قال لى ضاحكا : " كل ما فى دماغ جدك كامل أفرغناه على الورق " .

كان ذلك بعد شهور من إعداد الدفاتر وحصر ملكية الجد كامل، ومن يوم لآخر يتأكد لأبى أنه لم يفرغ كل ما فى رأسه :

– يظهر أنه ما يزال بها بقية من الأشياء .

كان الموظفون معه يفاجأون بأملاك للجد كامل لا يعرفون عنها شيئا . العائد منها يأخذ طريقه إليهم ، يثبتونه فى الدفاتر تحت بند "للبحث والتقصى" .

ويلجأ أبى إليه، يحك جدى كامل ذقنه الخشن بأظافره ويقول :

– آه . عندى فيم تريدها ؟

- نسأل عن ورقة الشراء . تاريخها . أى حاجة .

- ستجدها .

- أين ؟

- ابحث . هنا . هناك .

ويوما قصد أبى حجرة الجد كامل يرافقه موظف من الادارة يحمل تحت ابطه دفترا ضخما بجلدة سوداء لامعة، الدفتر يجذب النظر، ويوحى بخطورة الأمر . الجد كامل فى فراشه يتناول كوبا من عصير الطماطم التى اشتاق إليها، وكانت أمى أرسلتنى به وبقيت معه حتى ينتهى منه . يرشفه متمهلا مستمتعا بمذاقه، حين رأى أبى والموظف توقف وظل الكوب فى يده، أشار للموظف مستفهما . قال أبى:

- الأستاذ عبد العزيز . موظف بالادارة .

- أى إدارة ؟

- إدارة التفتيش . أملاكك .

الجد كامل يحدق فى وجه أبى . يغمغم فى صوت خافت :

- تفتيش . إدارة .

- حصرنا كل أملاكك وقيدناها فى الدفاتر .

- كلها فى هذا الدفتر ؟

- توجد دفاتر أخرى .

جلس أبى جانبه على الفراش، والموظف على المقعد والدفتر على فخذيه، عينا الجد كامل لا تفارقان الدفتر . قال أبى :

- جئنا نستفسر منك عن شىء .

- قل له يبعد الدفتر .

- يبعده ؟ كنت أسأل عن ...

أغمض جدى كامل عينيه : لن أخبرك بشىء قبل أن يبعده .

التفت أبى إلى الموظف الذى أخذته المفاجأة وراح يحدق ساكنا نحو الجد كامل، ثم انتبه وركن الدفتر إلى ساقى المقعد .

قال أبى : خلاص . أبعده .

فتح الجد كامل عينيه، واتجه بصره إلى ساقى المقعد، قال فى صوت احتد قليلا :

- لم يبعده .

- وأين يضعه ؟

- فى الخارج .

- لكننا نريده . البيانات التى نسأل عنها مقيدة به .

نقل الجد كامل نظراته من واحد للآخر، ثم انصرف عنهما، وراح يرشف عصير الطماطم .

أشـار أبى للموظف الذى حمـل الدفتـر إلى خـارج الحجـرة وعاد .

قال أبى فى شىء من الضيق إن هناك ثلاث قطع من الأرض لم يعثر على أى أوراق لها .

الجد كامل يتأمل كوب العصير الفارغ فى يده :

– كل مرة تأتى وتقول ذلك ثم تعثر عليها .

أبى ينظر إليه صامتا، الجد كامل يبدو مشاكسا على غير العادة، وربما انتبه إلى ذلك، وفطن إلى وجود الموظف الغريب فى الحجرة، هو الحريص على كرامة حفيده حتى أمامنا، أطرق قليلا ثم سأل فى صوت هادىء :

– وأين هى الأرض ؟

وصف أبى مكانها ومساحة كل منها، الجد كامل ابتسم فى اطراقته، وكان يقبض يده ويبسطها :

– آه . الأخوات الثلاث . كل منها نصف فدان . متجاورة . تفتح من جانب على الخلاء، الجوانب الأخرى تحيط بها أشجار كافور

تمتم الموظف : هى .

رمقه الجد كامل لحظة وعاد إلى اطراقته :

– كنت أزرعها برسيما .

قال الموظف ساحبا مقعده قليلا إلى الأمام :

– مزروعة الآن ذرة .

– كلما كانت تأتى فرصة أزرعها برسيما . بعد أن تنبت، وطولها نصف شبر، الأحواض الثلاثة جنب بعضها . لا ترى غير البرسيم، النبتة الصغيرة . ترتعش . آه . أقل نسمة . وحتى من غير نسمة . من ذعرها تخطف قلبك . لما يزيد طولها ولا أعرفها . كلها تميل ناحية واحدة، ثقيلة ونائمة على نفسها .

أبى والموظف يتبادلان النظرات . يسعل أبى ويقول :

– ما دمت تتذكرها ...

– آه . أتذكرها . من دون الأحواض الأخرى كنت أستلقى على الشطوط بينها وأروح فى النوم .

– وأين أوراق ملكيتها ؟

– ستجدها .

– بحثنا . لم نترك مكانا . الصندوق . درج الترابيزة، خلف الطوبة فى الجدار . وجيوب هدومك القديمة .

– افتكرت .

انحنى يدعك ساقيه :

– آه . لم تكن من أراضى الإصلاح التى أخذتها من الميرى كانت مزروعة . واشتريتها بزرعتها . قمح، أول طرحة لها عندى . من عشرين أو خمسة وعشرين سنة . أولاد عبد الحميد . كانوا ثمانية ورثوها عن أبيهم . تخاصموا عند تقسيمها . ثمانية ويتخاصمون باعوها . رحمة عليه عبد الحميد . كان مثلى يحب أن يزرعها برسيما

وأين ورقة الشراء ؟

- صحيح . أين ؟ ستجدها .

واستلقى فى الفراش وأغمض عينيه

ظل أبى يبحث والموظفون، والجد كامل يقول حين يذهب أبى إليه

- ستجدها . الأوراق تختفى وتظهر .

لم يعثر عليها غير أم سالم .

كانت منحنية تضع صينية الغداء أمام الجد كامل، وأحست بوجع فى ظهرها، انثنت متألمة ولمحت ما يشبه الثعبان يتدلى من فوق الدولاب، صرخت . وجاء أبى - وكان يتأهب لقيلولته - على صراخها، واكتشف أن الثعبان لم يكن غير دكة لباس قديم للجد كامل، مغزولة من صوف غنم بلون الثعابين ومبرومة مثلها .

ضحك الجد كامل حتى دمعت عيناه :

- ثعبان يا هبلة .

قال أبى فى ضيق وكان متجها للباب :

- ومن رماه فوق الدولاب ؟

قال الجد كامل : هدوم قديمة .

عاد أبى، وقف على المقعد، وسحب من فوق الدولاب صديرى ولباس، كانا ملطخين بطين جاف من سنوات طويلة، وعثر فى جيب الصديرى على ورقة شراء الأحواض الثلاثة ومعها مسمار قلاووظ

قسيمة زواج الجد كامل عبد القادر . العمر عشرون عاما الزوجة فهيمة متولى . العمر ستة عشر عاما، البيت القديم الذى ورثه من أبيه وخمسة أفدنة، صكوك الملكية المهترئة، أوراق لصق كثيرة بظهرها، أتذكرها تلك الفجوات بجدار الحوش، فى النصف القريب من الباب الخارجى، مسامير ضخمة وحلقات حديدية، تربط بها البهائم التى تبيت فى الحوش .

مثل كل النسوان فى الحارة تصحو فهيمة مع طلعة الفجر، تجمع روث البهائم، تخلطه بالتبن، وتضعه فى طشت، ترفع السلم الخشبى الذى يرقد فى الليل على جنبه، تسند طرفه للجدار وتصعد بالروث إلى السطح، تصنع أقراص الجلة وتتركها لتجف .

يصحو الجد كامل ويجد الحوش نظيفا . البهائم الأربع أكلت وشربت، وحمارته أيضا، يتناول فطوره ويمضى، لا شىء يشغل باله . الأمور تجرى فى طريقها الذى اعتاده منذ كان يعيش مع أبيه، والفدادين الخمسة تحقق له حياة مريحة ، تسمح له باستئجار عدد من الأنفار فى مواسم الشغل، وشراء جلبابين أو ثلاثة من الصوف للخروج والزيارات . امرأته أيضا، وكان بائع الأقمشة يحط بقجته

الضخمة من فوق ظهره على عتبة بيتها، وتأتى النسوة إليه، من يردن الشراء أو الفرجة، كانت فهيمة توصيه بما تريد، طرح حرير، قماش مشجر، ملايات، ملابس داخلية - التى تحدثت عنها النسوة كثيرا فيما بعد أثناء قعدتهن مع أمى فى الحوش - كانت تشتريها جاهزة، لا تخيطها مثل الأخريات، نساء معدودات فى البلدة يستخدمن الجاهز، يقول لها التاجر :

- سآتيك من نفس الصنف الذى أحضره لامرأة الحاج بسيونى. تسمعين عنه ؟

- ومن لا يعرفه .

- تتعامل معى من خمس سنين .

وتكون عيناه التقطت مقاسات صدرها وعجيزتها، يقلن إن الجاهز كان يبرز استداراتها، غير أنها استدارات على قد حالها، الجاهز كان يحسنها قليلا . بنيتها الضعيفة لا تتحمل العمل طويلا، تستريح من وقت لآخر جنب الجدار ورأسها على يدها، الجد كامل لم يقصد ىء، كانت قريبته، لولا ذلك كما يقلن لتزوج من واحدة ع تلجأ إليهن ليساعدنها، وكن لا ينتظرن نداءها، كما أتين بعد ذلك للجدة زينب، وكما تأتى بناتهن الآن لأمى .

حملت بعد عام من زواجها، وازدادت شحوبا على شحوب، وضعفت حركتها، يعددن لها فرشة طرية من القش لتقعد معهن فى الحوش .

فى شهرها السابع انتفخ بطنها أكثر مما اعتدن رؤيته، وكانت فى جلستها تسند ظهرها للجدار وتمد ساقيها مفتوحتين، مستغرقة مع نفسها، ويناديها مرتين وثلاثا قبل أن تلتفت إليهن، انتفاخ بطنها وصفرة فخذيها وهزالهما ليس بغريب عليهن، كثيرات منهن مررن بذلك ولم يزعجهن، غير أنها بخلافهن، عيشتها سهلة لا تعرف التعب، مثلها وبصحتها ربنا يستر . حين تتعرى فخذاها البائستان فى قعدتها ولا تهتم بتغطيتهما تقوم واحدة منهن بسحب الجلباب فوقهما .

يوم الولادة أيقظت الحارة كلها بصراخها، وامتلأ البيت بالنسوة. الرجال قعدوا خارج البيت بامتداد الجدار، طول الليل والداية تحاول معها . لفظته مع طلعة الفجر، كان ولدا سمينا بحجم اثنين، حتى أن الداية شهقت وهى تسحبه . مزق أمه فى شدة فرقدت كالميتة، جاؤوها بطبيب من المركز فى نفس الصباح، رمق المولود فى فرشته شذرا قبل أن يستدير إلى الأم .

نهضت بعدها شديدة الهزال، وقلن إنها أيام وتسترد عافيتها، غير أن النظرة الفزعة لم تفارق عينيها، والدوخة التى تأتيها فجأة، تكاد تسقط من طولها إن لم يسعفها جدار قريب أو واحدة تكون بجوارها .

أقبل الرضيع على ثدييها فى نهم، ولبنها لا يكفيه، تتناوب امرأتان من الحوارى المجاورة إرضاعه معها، حين ترى فهيمة الواحدة منهما والطفل فى حجرها تلوى بوزها وتختفى، لا تظهر إلا بعد أن تنتهى المرأة من إرضاعه، ومرات لمحنها عندما تختفى منزوية بمدخل

الحجرة تعصر ثدييها الصغيرين وكفها المفتوحة تحت الحلمة لا تستقبل قطرة واحدة, وتبكى وتنهنه وتقول إنها لن تعيش حتى تراه يصلب عوده .

تحمله على ذراعها أينما ذهبت، لاتفارقه فى اليقظة أو النوم، الولد سمين أبيض يضحك لأى صوت حوله، تجلس به فى ركن الحوش تناغيه ويناغيها، عندما ينعس فى حجرها يتخشب جسدها، تكلمنا بالإشارة، وكانت تريد أن تثقب أذنه لتعلق بها حلقة معدن وصفها الشيخ الجمعة لتقيه من الحسد، ولم يمنعها غير كلامنا وما حكيناه لها عن سوابقه فى النصب على الناس، وإذا كان ولابد فحجاب تعلقه فى رقبته . وقد كان، علقت له الحجاب .

عندما بدأ يحبو حبت معه، لمعة عينيها، شعرها الذى تنسى أن تمشطه، الولد يضحك وهى تضحك، تحنى رأسها تكاد تلامس الأرض، يحبوان الحوش بطوله ويعودان، يدوران حولنا، ويمران من بيننا، نجمع سيقاننا لنفسح لهما الطريق، ويختفيان فى الحجرات ويظهران، صدر جلبابها انفتح على آخره بعد أن سقط الزرار من زحفها، ننبهها، ولا تلتفت إلينا . ومرات يأتى زوجها فى النهار، أظنها مرة أو مرتين، نظرت إليه وشدته من طرف جلبابه، ركلها مزمجرا، سقطت على جنبها ضاحكة، ما كانت تبالى بغضبه أو ضيقه من لعبها الكثير مع الولد .

عندما بلغ الجد شاكر شهره السابع وراح يحبو مع أمه فى أنحاء البيت مطلقين أصـ..اتا لحيوانات وطيور، ومقلدين بعض حركاتها تسلم الجد كامل صك امتلاك مائة فدان من الأرض البور منهيا بذلك شهورا طويلة من التفكير .

وقف ساكنا غير قادر على الدهشة أو الفرح وقد تم ءمر ببساطة شديدة جعلته يتشكك فى قيمة ما حصل عليه .

التفت ..اءه ينظر إلى المبنى الأصفر المتهالك، ونوافذه الكبيرة بقضبانها الحديدية الصدئة وخلفها تظهر رؤوس الموظفين منحنية فوق المكاتب .

سبع مرات جاء يستطلع المكان ويراه بعينيه، حتى بعد أن استقر رأيه على شراء الأرض، يأتى إلى المبنى مؤجلا الشراء ليوم آخر . يسير فى طرقته الرئيسية يختلس النظر إلى الموظفين خلال الأبواب المفتوحة، ويتمهل أمام الحجرة التى بها الموظف المختص الذى سيقوم بإجراءات البيع، متأملا أصابع يديه تقلب أوراقا على المكتب، كان قد ذهب إليه من قبل ثلاث مرات . فى الأولى أجابه الموظف على ما يسأل عنه . الثمن . المساحة .

الموقـع، فى الثانية كانت نفس الأسئلة، وبعد أن أجابه الموظف عنها، سأله :

– ألم تأت من قبل ؟

– أتيت .

فى المرة الثالثة استقبله الموظف فى لطف، وقبل أن يسأل الجد كامل نفس أسئلته قال له الموظف :

– لا جديد . عندما تجهز بفلوسك تعال .

غير أنه استمر يذهب، مشدودا للمكان الذى سيعقد به صفقة عمره، يلقى نظرة، ويشرب شايا عنـد سـاعى المصلحة الذى يجلسه فى ركن بطرقة صغيرة جانبية يتخذها لإعـداد مشروبات للموظفين، عادة ما يحمل له الجد كامل شيئا فى ذهابه، ذكر بط مذبوح أو فرختين .

يقـول له الساعى : ما أعرفـه أن البعض يأتى ويشترى بالمنتين فدان وأكثر . كل البلاد فى محيط المركز التى جفت بها مياه البحيرة المالحة .

لا يكثر الجـد كامل من سـؤاله . هى مـرة واحـدة ولم يسأل بعدها .

يأتى إلى السـاعى ويقـول : كنت قادمـا للمركز وقلت أمر عليك .

ويقـترح على السـاعى فى إحدى المرات زراعة بعض أشجـار

الليمون بالجانب الأيمن العارى من الظل .

– إن أردت أعزقها لك . رائحة الليمون تبهج المكان .

ويقول السـاعى إنه يوافقه على أن أشجار الليمون أصلح شىء للمكان، فلا مثيل لرائحتها، غير أن الأمر سيقتضى تشكيل لجنة ومحاضر ووجع دماغ هو فى غنى عنه .

ويوافقه الجد كامل : صحيح . صحيح .

لا يدرى أحد من لفت نظره إلى الأرض البور . كانت موجودة من سنين ومعروضة لمن يريدها برخص التراب، ومن يملك المال فى البلدة لا يسعى إليها او يفكر فيها، كانوا يرون أن امتداد البلدة الطبيعي سيظل رأسيا مع مجرى النهر . أراضى بور شاسعة لاتصل إليها المياه، ولاأمل أن تصل إليها، والنهر ينحنى ويمضى مبتعدا، والترعة التى خصوا البلدة بها شقت من سنين، وجرت مياهها إلى الناحية الأخرى وتناثر حولها عدد من الكفور، وبدا أن الأمر توقف عند هذا الحد .

أتخيله وقد أخذت الفكرة تنمو فى رأسه، يركب حمارته ويمضى إلى هناك، يخلف البيوت، والأرض المزروعة، والأشجار، ويقف محدقا فى الخلاء، الأرض ممتدة إلى بعيد، لا يحتويها بصره، تتناثر بها نباتات الصبار والشوك، مستندا بذراعه كعادته إلى رقبة حمارته، هو الخبير بالأرض يعرف مدى صلاحيتها، أما المياه فلا يقدر عليها أحد . وربما فى وقفته تلك حسبها ووجد أنه بثمن فدان ونصف من أرضه يستطيع أن يشترى مائة فدان .

أتخيل أن رقم المائة هو الذى كان يدفعه إلى معاودة التفكير، والمياه فى علم الغيب، قد تأتى وقد لا تأتى، وقبل أن يشقوا الترعة من سنين، واغتنى بجريانها من اغتنى، هل كان هناك من يقول إن الترعة ستأتى ذات يوم .

فى لحظة كما يقال سرقته السكين وباع الفدان ونصف، هو الذى كان مترددا لوقت طويل بدا كالمحموم يتعجل إنهاء الشراء، ما أن تسلم فلوسه حتى ذهب إلى المبنى الأصفر، وخرج والصك فى يده .

وقف ساكنا وقد انتابته الهواجس، المبنى الأصفر تغمره الشمس، الواجهة تساقط طلاؤها فى أماكن متفرقة بدت كالبقع، فدان ونصف من أخصب الأراضى تروح فى غمضة عين مقابل لاشىء . مائة فدان لاقيمة لها، الكثيرون يصرفون النظر عنها، وهو ؟ لو أنه استشار أحدا .

كان فى تلك الحالة من البلادة والحيرة حين وصل إلى البيت، ورأى امرأته تحبو مهللة مع ابنه فى الحوش وتجذبه من جلبابه فرفسها .

انتشر خبر بيعه الفدان ونصف، ولم يعرف أحد بشرائه المائة فدان بعد أن تكتم أمره، وكأنه عار لحق به، كان صموتا لا يرد على أحد، وفى البيت صار متجهما يغلق على نفسه باب الحجرة، ولا يكلم امرأته . حتى جاء يوم وقفت أمامه مشتعلة

النظرات تلم شعرها المنكوش بيدها . سألته فى صوت مبحوح وكان راقدا على الكنبة :

- بعت الفدان ونص يا كامل ؟

رمقها صامتا، أغلقت فتحة صدرها وازداد اشتعال عينيها ورعشة غضب بوجهها الهزيل الشاحب :

- رد يا كامل . بعت الفدان ونص ؟

نالتها كف عنيفة ذهبت بنصف سمعها إلى الأبد، وهوت من طولها دون صوت جنب الجدار .

حين عاد الجد كامل فى الليل لم يجدها . ولم يسأل .

النسوة من الجيران تجنبن الذهاب إلى البيت فى غيابها، عندما يرونه قادما يسكتن ويلتفتن إلى الناحية الأخرى حتى يبتعد .

غابت فهيمة شهرا عند أهلها وعادت . رأى الجد كامل لدى رجوعه فى الليل البيت نظيفا ومرتبا، وعشاءه على الطبلية مغطى بجلباب، كانت فى الحجرة الأخرى مع الولد، همسهما ومناغاتهما الخافتة خلال الباب الموارب، تناول عشاءه ودخل حجرته، سمعها حين خرجت من الحجرة والولد على ذراعها تناغيه، جمعت الأطباق ورفعت الطبلية وعادت إلى حجرتها .

حين يكلمها تتوقف ساكنة، تدير أذنها السليمة ناحيته وتميل بوجهها خفيفا مرهفة السمع - تلك الحركة التى لازمتها بعد ذلك -

كان قد عرف بعاهتها من أخيها عندما التقى به فى السوق وعاتبه بعدها كان يكلمها وعيناه فى ناحية أخرى، مختصرا كلامه قدر ما يستطيع، تنصت إليه وتمضى دون كلمة . لم يقترب منها، هى أيضا لم تسع إليه . ما أن يغادر البيت حتى يذهب عنها انطواؤها ، تصفق مهللة لابنها الذى يهلل أيضا ملوحا بيديه، وينطلقان فى حبوهما .

حين تجاوز الجد شاكر عامه الثانى بثلاثة شهور بدت فى الأفق بشائر تغير ما .

كان ما يزال يتعثر فى خطواته وسط صيحات أمه وحماسها، ويرجع تأخره فى المشى - كما قالت النسوة - إلى سمنته، وأمه التى لم تكن تتركه يرهق نفسه فى محاولات السير، تتبعه مقرفصة، تنقل قدميها مع قدميه، ويداها متأهبتان لتمسكا به قبل أن يهوى .

يأتى الجد كامل أحيانا على غير موعد باحثا عن شىء نسيه، تسكت النسوة، أيديهن مستمرة فى العمل . عجين . غسيل . طبيخ، يرسلن تحذيرا لفهيمة، سعلة قوية، أو نداء حين لا تلتفت إليهن، تتوقف فهيمة ومعها الولد، تهمد حركتهما، ينظران إلى الجد كامل الذى يتمهل قليلا مغمغما بكلمة أو كلمتين، فهيمة فى قرفصتها توجه أذنها السليمة ناحيته، وذراعها تحتوى الولد . فمها المغلق فى شدة، وتكشيرة على جبهتها، ونظراتها الزائغة هنا وهناك، تنتظر بفارغ الصبر ابتعاده، يفلت صوت رغما عنها وكأنها تقىء، يزمجر الجد كامل مبتعدا .

فى هذه الأيام التقى بالحاج بيومى، الجد كامل كان غائصا لركبتيه بمياه إحدى القنوات ينظف قاعها مما تراكم من قش وأوراق

الشجر، توقفت بغلة الحاج بيومى بجواره على السكة، العباءة السوداء تتهدل على كتفيه قال :

– يا كامل . من نصحك بشرائها ؟

وأشار بعصاه فى اتجاه الأرض البور، واعتدل الجد كامل ونظر فى نفس الاتجاه :

– من أخبرك ؟

– عرفت فى المصلحة . أنا أيضا أشتريت، مائتى فدان، كنت أريد أرضك الأقرب للبلدة، فأخبرونى أنك أخذتها .

شطف الجد كامل ذراعيه وخرج من القناة، سار بجوار بغلة الحاج . قال :

– ومتى اشتريت ؟

– من شهرين . وأنت . من نصحك بالشراء ؟

– لا تستحق نصحا .

– تخفى عنى ؟

– كما أقول لك . جاءت وحدها .

– أربعة آخرون اشتروا قبلك . تعرفهم ؟

– أبدا .

– يبدو أنهم أغراب . لِمَ لا تضع ركائز حول أرضك ؟

– ومن يطمع فيها ؟

ضحك الحاج بيومى : لا تبدو فرحا بها يا كامل ؟

– ما حصل حصل يا حاج

ضحك الحاج مرة أخرى : طيب . يومين ثلاثة وتغير كلامك .

ونخس بغلته فانطلقت، أسرع الجد كامل ولَحق به .

كان يحكى لأبى تفاصيل هذا اللقاء مستمتعا :

– يوم لا أنساه أبدا . الحاج بيومى يعرف الكثير و لا يقول . ما كان ليشترى الأرض إلا بعد أن عرف واطمأن . أصحابه فى العاصمة يذهب إليهم من وقت لآخر . والبعض منهم يزورونه فيولم لهم، يذبح الخروف أو الديك الرومى . وكان يقال إن له قريبا يعمل فى الحرس الملكى، والحاج لا ينفى ولا يؤكد . ينظر إلى وجهى ويضحك . يرانى والعرق يصب منى ممسكا برقبة البغلة، وأقول له لن أتركك حتى تخبرنى، ويضحك . يقول :

"يا كامل . هو أسبوع بالتمام . وتشوف . وسيب البغلة "

وأنا لا أسيب البغلة . ذراعى ماتت على رقبتها .

يقول : « دى أسرار يا كامل . عندى ميعاد يا كامل . يا كامل يا كامل ».

وأنا ولا هنا . فين وفين وقال :

"طيب يا سيدى . الترعة خلاص . الحفر يبدأ بعد أسبوع " .

قالها وفتح الشمسية ومضى، وأنا واقف فى مكانى أنظر إليه ولا أصدق ما قاله .

كان عمر الجد شاكر أربعة أعوام حين بدأ يخرج إلى الشارع، ثمة محاولات قبل ذلك غير أنه لا يبتعد أكثر من خطوتين عن عتبة البيت، وعندما يفزعه صوت ما يلقى بنفسه فى حضن أمه التى تتربع على العتبة وتفتح ذراعيها له، وكانت أحيانا تصدر أصواتا تخيفه فرحة بارتمائه على صدرها .

ظل أكثر من شهرين مكتفيا بالاستلقاء فى حجرها معريا فخذيه السمينتين وهزهما، وعيناه تتابعان الأولاد فى لعبهم بالحارة، وتناديهم فهيمة ليلعبوا بالقرب من العتبة، ابنها فى حجرها يتحمس ويكركر ضاحكا، وحين يقع ولد من الأولاد كانا يصيحان معا مهللين . ويضيق الأولاد أخيرا من استمرارهم فى هذا اللعب، ويحاولون الابتعاد، وتغريهم فهيمة بحبات من التمر والملبس، يتجمعون أمامها، ويلاعبهم الجد وهو فى حجرها، يلكمهم فى صدورهم ويشد شعرهم، يحنى الولد منهم رأسه منجذبا لليد مخففا بذلك الألم الذى دمعت منه عيناه وطرف جلبابه فى فمه يكتم صيحته .

ألح الأولاد عليها لتتركه يلعب معهم، ترددت ثم سمحت .

قالت لهم إنه أصغر منهم فلا يرهقوه فى لعب عنيف .

وقالوا لها إن بينهم من هو أصغر منه .

كانوا يلعبون غير بعيد عنها، هى على العتبة لا تفارقها، ترد

على النسوة فى الحوش حين يسألنها عن شىء وعيناها على الأولاد، تلاحقهم صيحاتها حين يبتعدون أو ينطلقون فى جريهم تاركين ابنها وراءهم يحاول اللحاق بهم .

عندما يمرون أمامها تصفق له وتنحنى كأنما لتمسك به، جسده السمين يترجرج داخل الجلباب، وخداه اشتدت حمرتهما، تسحبه من بينهم، تمسح عرق وجهه بطرحتها، وتدس شيئا فى فمه ثم تطلقه .

ابنها يفضل لعبة بعينها، يقترحها ضاربا الأرض بقدميه . لا ينتظر رد الأولاد، يأخذ وضع السجود، ويتناوب الأولاد القفز من فوقه، يميل بوجهه جانبا ينظر إلى فهيمة ويضحك، تنحنى تبادله النظرات والضحك، عندما حاول فى البداية أن يقوم بالقفز تعثرت قدماه فى جسد الولد الراقد وكاد يسقط على وجهه لولا أن أمسك به الأولاد .

الجد كامل كان مشغولا أيامها بحفر الترعة، وقد خرج المجرى من زمام البلدة وأخذ منحنى واسعا فى اتجاه الأراضى البور، ثم توقف الحفر مع قيام الثورة .

منذ بدأت أعمال الحفر والجد كامل يمضى إلى الموقع من يوم لآخر حاملا السكر والشاى وعلب المعسل، يقضى أمسيته مع الأنفار ويعود .

حين بلغه خبر التوقف أسرع إلى هناك، استقبله الأنفار ضاحكين، كانوا مستلقين على جانبى المجرى يمصون قصبا :

– قلنا إنك لابد ستأتى .

يحدق إلى جوف المجرى صامتا، ومياه قليلة فى القاع، وكتل الطين عالقة بالجانبين فى انتظار من يجرفها، الأنفار تناثروا هنا وهناك، وأدواتهم ملقاة جانبا، والكراكة الضخمة ساكنة وسائقها راقد فى ظلها .

قال له مقاول الأنفار إن الأوامر صدرت لهم بالتوقف، ولايدرى السبب، ينتظرون .

عاد يومها يكلم نفسه، يقول إنه لم يصدق يوما أنه سيزرع مائة فدان، كان يحس أن شيئا ما سيحدث ويوقف كل شىء، ساقاه ملطختان بالطين، كان قد سار قليلا فى المجرى ونسى أن يشطفهما، وجلبابه على كتفه . دخل الحارة ومر بالأولاد يلعبون، ثم التفت وعاد إليهم، توقف الأولاد عن اللعب وتراجعوا خطوتين، الجد شاكر راقد على ركبتيه وقد رفع مؤخرته قليلا وكان يهزها مرحا .

صرخت فهيمة مندفعة، أطاحت الركلة بالجد شاكر إلى الحائط المجاور، لملم نفسه فزعا متحسسا وجهه، حين رأى الدم فى يده انفجر فى الصراخ . تسمرت فهيمة وقد رأت الوجه الدامى، استدارت إلى الجد كامل، فمها المفتوح على آخره، وعواء ينطلق من حلقها، وذراعاها ممدودتان إليه، تقهقر الجد كامل خطوة، ارتمت عليه، وسعت يداها إلى وجهه، نفضها بعيدا عنه، سقطت وتعرت فخذاها الهزيلتان، لونهما الأصفر الشاحب فى ضوء الشمس، رمقهما الجد كامل خطفا واتجه نحو باب البيت، لحظتها اندفعت النسوة من

الحوش على الصراخ، أخذ الجد كامل جانبا حتى خرجن ثم دخل شطف نفسه فى المرحاض، ولدى خروجه رأى الحوش مزدحما بالنسوة، أغلق على نفسه الحجرة ونام .

صحا فى العصر . البيت هادىء، والحوش نظيف، الحجرة الأخرى مغلقة، تردد لحظة ثم فتحها، كانت خالية، والسرير مرتب، تجول فى البيت باحثا عما يأكله .

سُحبت الكراكة من الموقع، اتخذت طريقا خارج البلدة رافعة ذراعها الضخمة، خلفها الأنفار يحمل كل منهم هدومه فى ربطة على ظهره .

الجد كامل كان قاعدا على شط حوض ذرة فى أرضه ينصت لضجة الكراكة تبتعد، مر به فى قعدته الحاج بيومى قادما من موقع الحفر .

– انت هنا . وأقول إنه لابد ذهب يسلم عليهم قبل أن يمشوا . انظر ماذا وجدت .

أشار إلى كوريك كان أمامه على بردعة البغلة .

– كان مختفيا فى الطين . حاجة تفكرنا بهم .

الجد كامل يعبث بالحشائش على الشط، قدماه غائصتان فى مياه القناة، ضحك فجأة، بادله الحاج بيومى الضحك . قال

– كان يجرى أيه لو الثورة انتظرت سنة ؟

رمى الجد كامل جلبابه إلى كتفه ونهض :

- خذنى معك .

سار بجوار البغلة، قال الحاج بيومى :

- ربما يعودون . كل غربال جديد وله شدة .

غابت فهيمة شهرا عند أهلها وعادت فاقدة النطق، وأثر جرح فوق حاجب الجد شاكر لم يلتئم تماما، ولون أزرق حول عينه شوه جمال وجهه، حين يكون متربعا أمامها تتأمله وتدمع عيناها .

سرعان ما فهمت النسوة إشارات يديها واستقر الوضع فى الحوش، كانا يظلان بحجرتهما فى الصباح ينصتان لحركة الجد كامل عندما يصحو، يتناول فطوره المعد فوق الطبلية ويمضى، وحين يخيم السكون داخل البيت يخرجان، تأخذ فهيمة قعدتها على العتبة، ويلحق ابنها بالأولاد يلعبون لعبة القطار . وعندما يأتى الجد كامل فى غير موعده يتوارى ابنها بحارة جانبية، وتختفى هى فى حجرتها .

الجد كامل فى أحزانه لا يبالى بهما، ويراهما يأخذان جانبا لدى مروره، ينظر إليهما صامتا ويمضى، كان بلغه أنهم سيردمون المجرى بعد شكاوى كثيرة من الأهالى إلى المسئولين بالمديرية، قالوا فى شكاويهم إن المجرى أصبح مقلبا للقاذورات ويقضى البعض فيه حاجتهم، وتأوى إليه الزواحف والثعالب، كانوا يمدون ألواحا من الخشب متجاورة ليعبروا المجرى، ولا تتحمل الألواح طويلا .

جاء أنفار ذات صباح وبدأوا الردم من ناحية البلدة، واندفع الكثير من الأهالى يعاونونهم، الجد كامل يقف غير بعيد ينظر إليهم، المسئول الذى رافق الأنفار يجلس على مقعد بفتحة خيمة يدخن الشيشة وأمامه أوراق على منضدة صغيرة، سار الجد كامل إليه ووقف جانبا، قال حين التفت المسئول إليه :

- تردمونها ؟

- كما ترى .

ظل الجد كامل واقفا، ولما التفت المسئول إليه مرة أخرى ابتعد .

كم من الشهور مرت ؟ ستة . سبعة . لا يدرى . الأيام تشبه بعضها، كان الردم قد توقف، والأنفار رحلوا ذات صباح بعد أن ردموا مسافة كبيرة من المجرى، ولا خبر بعدها، حتى الحاج بيومى الذى كان يطمئنه بكلمتين من حين لآخر لم يعد يراه .

كان فى قعدته على شط حوض طماطم يتناول غداءه، طلب من النسوة فى الحوش إعداد رغيفين وغموس يأخذها لدى خروجه، وتجنب بذلك الرجوع للغداء، كان يعود فى الليل، وتكون النسوة غادرن، وفهيمة والجد شاكر راحا فى النوم، وعشاؤه على الطبلية ينتظره، كان يقصد عندما يطلب غموسا مع الرغيفين الجبن والمخلل، غير أنه دائما يجد نصف فرخة أو قطعتى لحم، وعرف أنها فهيمة، النسوة لا يقتربن من الزفر إلا بأمرها، ويقول إنها لم تقصر فى حقه أبدا، وما حدث قد حدث، وهى الآن لا تطيق أن تنظر فى وجهه، تهرب بعينيها

بعيدا، هو أيضا لا يحتمل الاقتراب منها أو حتى يكلمها . يشعر بصدها على بعد خطوات، كانت تحس به قبل أن تراه، يكون داخلا إلى البيت، ويلمحها فى نهاية الحوش وظهرها للباب، تتوقف حركتها، جسدها مشدود يترقب، ورأسها يميل جانبا حتى تسمع حركته بأذنها السليمة، لا تشير بيديها أبدا فى وجوده، مجرد مأمأة خافتة تفلت من حلقها عندما تريد ان تقول شيئا .

أفاق من شروده على ضجة يتردد صداها فى الأفق كأنه قطار مرق من جانبه . عاد إلى غدائه، واستمرت الضجة :

– معقول ؟ الكراكة ؟

قفز إلى حمارته تاركا الغداء، رمح بها إلى موقع الحفر .

يحكى الجد كامل لأبى عن اليوم الذى تدفقت فيه المياه إلى الترعة .

– كان يوما غريبا من أوله . مع طلعة النهار وشىء يكتم على صدرى . لا تعرف إن كانت الفرحة أو الانتظار الطويل . لم أكن مستريحا . ما الخبر ؟ . لاأعرف . قبلها بيومين بلغنى أن مسئولا كبيرا سيأتى من المديرية ليفتح الهويس مندوبا عن الثورة . وقالوا إنه أول مشروع يتم بمديريتنا فى عهدها . قلت خير . وطلبوا أربعة عجول تذبح فى المناسبة . أرسلتها لهم . أبوك شاكر كان عمره ست سنين . وأنا خرجت .

لبس الجد كامل جلبابا من الصوف الخفيف، وشالا جديدا على كتفيه . وقف لحظة ينظر إلى باب الحجرة الأخرى المغلق .

قال إنه يوم غير الأيام الأخرى . ربما لو صالحها ؟

فتح الباب ودخل . كانت راقدة فى السرير . استدارت وأعطته ظهرها، الجد شاكر ممدد بجوارها، استند إلى كوعه ورفع رأسه ينظر إليه .

قال الجد كامل : " اليوم يفتحون الهويس "

ظل جسدها ساكنا . مأمأة خافتة، أصابع يدها الشاحبة على ردفها ارتعشت قليلا . همس الجد شاكر فى أذنها ثم عاد يتمدد جنبها ويخفى رأسه فى صدرها .

وقف الجد كامل بعض الوقت ينظر إليهما ثم خرج .

الزحام شديد عند الهويس، لمح الحاج بيومى بجانب المسئول ومعهما العمدة وأعيان البلد، أشار له الحاج أن يقترب، غير أنه ظل بعيدا خارج الزحام .

كانوا ينتظرون انتهاء الذبح فى المجرى أمام الهويس . عشرة عجول، حين علقت بفروع الأشجار لسلخها تجمهر الناس حولها انتظارا لتوزيع اللحم، وخف الزحام عند الهويس .

اقترب الجد كامل قليلا، لا يدرى ما يقول أو يفعل، كانوا هناك يساعدون المسئول الذى مال على عجلة الهويس محاولا تحريكها . وتدفقت المياه .

استداروا مغادرين . كانوا يحيطون بالمسئول يستمعون إلى ما يقوله .سار الجد كامل وراءهم، توقف عند مدخل البلدة، كانوا يبتعدون فى طريقهم إلى بيت العمدة .

فهيمة والجد شاكر كانا يلعبان وقتها داخل البيت، خطف منها شيئا وجرى، وهى جرت خلفه تحاول الإمساك به، يضحك متفاديا ذراعيها الممدودتين، تلمح عيناه السلم الخشبى مسندا إلى الجدار، تسلقه إلى السطح، التفت ورآها تصعد وراءه . يقفز فى مكانه صاخبا، ويركع ممسكا بطرف السلم يحاول أن يحركه وكأنما

ليفزعها، مال السلم قليلا، توقفت عن الصعود، رفعت عينيها تنظر إليه، وسقط بها السلم .

النسوة في الحوش يحكين، وأمي تسمع :

- لو رأيت وجهها بعد أن حملناها إلى السرير . هادئ، وصاف، تسبل عينيها وتفتحهما، تنظر إلينا واحدة . واحدة . وتطيل النظر . أهلها جاءوا حين أرسلنا إليهم . وخرج من يبحث عن زوجها كامل . يدها على بطنها . رفعت اصبعين، تشير لنا بهما وتحرك شفتيها . وفهمنا أنها تريد ابنها . بحثنا عنه ولم نجده . حين دخل زوجها أدارت وجهها للناحية الأخرى، وقبل أن يصل الطبيب ماتت .

أسأل أمي : والجدة زينب . كيف عرفها جدى شاكر ؟

قالت : جدك شاكر لم يعرفها . ولا حتى شافها . هو جدك كامل . كم مرة حكى لنا أنا وأبيك كيف التقى بها . ما من مرة يا أبا كامل تحكى عن شيء إلا وتنسى نصفه . أما لقاؤه بالجدة زينب فيذكر كل تفاصيله، حتى ما كانت تلبسه . أيامها كان جدك شاكر يقيم عند أهل أمه، ويهرب من جدك كامل كلما رآه حتى لا يطلب منه ان يساعده فى الغيطان أو يعود به للإقامة فى البيت . وجدك كامل ولا على باله . لم يذهب أبدا إلى بيت أهل جدتك فهيمة ولا حتى سأل عن ابنه شاكر . يعرف أنهم لن يرحبوا به . وكانوا عندما تأتى سيرته فى أى قعدة يشتمونه ويقولون كذا وكذا، والكلام يبلغ جدك كامل . المرة التى أخذ فيها جدك شاكر إلى الغيطان كان فى العاشرة من عمره، والتقطه من أمام دكان بقالة وأركبه وراءه على الحمار. يقول جدك كامل إنه طول السكة وهو يبرطم، ما أن خرج الحمار إلى الخلاء حتى رمح قليلا، وجدك شاكر يميل شمالا ويمينا، أمسكه جدك كامل قبل أن يقع ونقله أمامه، وجدك شاكر بكى، شخط فيه جدك كامل . اسكت . وسكت. وراح ينهنه . المهم أنهما وصلا، وانشغل جدك كامل مع الأنفار، ورمى بصره شاف جدك شاكر فى ظل جميزة يلعب بالحصى، المرة الثانية لمحه يجرى بين الزرع ناحية البلد . وكانت المرة .

لم يحاول بعدها .

الأرض الجديدة مشوارها طويل، والشمس حامية فى الصيف، والمطرة شديدة فى الشتاء، والحمار لم يعد يسعف جدك كامل . اشترى الفرس، وأشياء لزوم الفرس، شمسية، وجزمة، وشراب، آه يا أبا كامل . القصد . يغيب أياما فى الغيطان ويعود . قعدته فى البلد عند صاحبه الحاج عنتر صاحب محل القماش، أيامها لم يكن غيره فى البلد، جدك كامل يربط الفرس أمام المحل، يأخذ قعدته ويشرب شايه، القهوة لا يشربها . ساعة زمن ويمشى.

ويوما كان فى المحل ودخلت زينب .

أتوقف أمام لقائهما، أعود إليه المرة بعد الأخرى، أتخيل الجد كامل بعد غيابه أياما عن البلدة، لا يتحمل ضجتها ولا زحامها، يقتصر خروجه على صاحبه عنتر، يحلق ذقنه التى طالت وسط الغيطان، ويسوى شاربه، ويستحم، وينتقى جلبابا لا يزال جديدا ويخرج . أتذكر وجهه أيام الأعياد والمواسم بعد الحلاقة والاستحمام، ويكون قاعدا بيننا، وأرانى مستندا إلى كتفه أسأله لم لا يحلق ذقنه كل يوم ؟

– ليه ؟

– عشان انت كده حلو .

الجدة زينب لم أرها، أمى أيضا، ما سمعتْه من النسوة فى الحوش وحكته لى، وما سمعتُه حين يتصادف وجودى بجوارهن، ما أن تأتى سيرتها حتى يكثر كلامهن عن جمالها الذى لم يرين مثله،

وطيبتها، ونوبات الغضب التى تجتاحها ولا تظهرها أبدا . حاجات كثيرة كانت تغضبها ولا تقول كلمة، ولا يبان عليها، يتغير لونها وفى ثانية تعود كما كانت .

– ويا ست أم ياسر . نكون بنكلمها وعيناها فى عيوننا . ويتهيأ لنا أنها لا تسمع كلمة مما نقول . ومن كسوفنا لا نسألها . رحمة عليها .

لا يشرن من قريب أو بعيد إلى الحاجات التى كانت تغضبها . سلوك الجد شاكر مع البعض منهن وكن وقتها بنات كان يجرى بعيدا عن عينيها. ويثرثرن به ضاحكات، فى مرات يفلت منهن الكلام . العجائز اللائى عاصرن تلك الأيام، كأن يقلن مثلا :

– وما أدراك انها لم تكن تسمع وترى ما يفعله معنا .

– ولا كان يبان عليها .

– صحيح . كذا مرة الواحدة منا كانت تعرف أنها رأت أو بلغها ما فعله الحاج شاكر معها، من كسوفها تترك البيت، لا تعود إلا بعد أن ترسل لها الست زينب، وأوقات كانت تذهب بنفسها لتأتى بها .

– فاكرة هانم ؟

– آه هانم . الله يرحمها .

أمى تنصت، تتظاهر بعدم الاهتمام، حذرة أن تعلق بكلمة فيتوقف حديثهن، رغم ذلك ينتبهن فجأة، نظرة خاطفة يتبادلنها، أو لمسة فى الركبة تسرى للأخريات، يتغير حديثهن بعيدا عن الجدة زينب، أمى تحاول أن تعود بالكلام إليها، محاولتها الحذرة مكشوفة لهن،

يتبادلن أثرها نظرة تحذير، أمي بعد فشلها تسأل دون لف أو دوران :

- وأيه حكاية هانم ؟

- ولا حكاية ولا حاجة . نفس هزاره معنا .

- وهانم ماذا فعلت ؟

- وماذا ستفعل ؟ مثلنا . هو الحاج شاكر ونعرف هزاره .

هـــذا التكتـم حين كانت تأتى سـيرة الجـدة زينب لم أنتبـه إليه إلا بعـد سـنوات . أستـعيد قـعـداتهن فى الحـوش، محـاولا قراءة ما خفى .

الجد كـامل لم يلتفت يومـا إلى واحـدة، هكذا حكين عنه، يجد نفسه ينظر مبهورا إلى زينب وهى تتهادى فى مشيتها إلى داخل المحل، الطرحة الخفيفة أمسكت طرفها بشفتيها حين أزاحها الهواء عن رأسـها، شعرها الأسود الكثيف ملموم فى ضفيرة تصل إلى منتصف ظهرها، جلبابها واسع بلون الحناء .

- حتى الكحل فى عينيها رأيته يا أبا كامل .

تناول المقعد الذى رفعه عنتر من خلف " الكونتر"، وضعه لها غير بعيد عنه، عيناها شديدتا السواد، رائقتان ابتسمتا له بمودة، كوب الشاى أمامه لم يقربه، يرمقها من فوق لتحت، وكأنما أحست بنظراته تورد وجهها وجذبت الطرحة لتغطى جانب وجهها من ناحيته، خجلها الذى جعله بشوشا، هو الذى لا يفهم فى القماش ولا ألوانه اقترح على عنتر أن يأتيها بأثواب ثلاثة فى الركن البعيد من الرف العلوى . وقال عنتر دون أن يلتفت إلى ما أشار إليه :

- دى رجالى يا كامل .

سمع ضحكتها الخافتة، وأحنت رأسها مخفية وجهها .

استقرت عينـاه على أصابع يديهـا تتحسس القماش الذى فرده عنتر أمامـها، ولمح قدمها حين أخرجتها من الشبشب، قدم صغيرة وكعبها من غير قشف، حتى جـوف الشبشب رآه نظيفا كأنما لم يدخله غبار .

أشارت بيدها نحو أثواب أخرى، صعد عنتر على مقعد وجاء بها . انتقت قطعتين قصهما عنتر ولفهما .

ظلت عينا الجد كامل عالقتين بها حتى خرجت . سأل عنتر عنها . قال عنتر :

- بنت الحاج مرسى .

تقول أمى : شوف النصيب . تخرج لتشترى قماش فى نفس اليوم يكون أبا كامل فى البلد وفى المحل ويراها . وتدخل دماغه وينوى يطلبها لجدك شاكر .

استقر الجد كامل فى البيت بعد زواج الجد شاكر . يعود من الغيطان مع المغرب، يجد فرشته نظيفة، وملابسه مغسولة ومرتبة، ولقمة ساخنة يتناولها، عادة ما تجلس معه الجدة زينب أثناء الأكل، يقول لها:

- مدى يدك.

- أكلت .

كان ذلك فى الشهور الأولى من زواجها، وبعد ان اشتد خصامها مع الجد شاكر صارت تتناول عشاءها مع الجد كامل، ويكون الجد شاكر فى حجرته يستبدل ملابسه استعدادا لقضاء سهرته فى الخارج، لم يغير شيئا من عاداته بعد الزواج . كان يقول :

- لم تخلق بعد المرأة التى تغيرنى .

فى تلك الفترة - أيام زواجه الأولى - كان لا يزال متعلقا بخاله "مسعود" . وكان يكبر الجد شاكر بخمسة أعوام، يصحبه بحثا عن الأفراح والموالد . ويقال إن الخال كان صاحب مزاج، يهوى الغناء ويجيد العزف على الأرغول، يمارسه فى الخلاء بعيدا عن العيون، وكانا يسافران من حين لآخر إلى المنصورة حيث الكازينوهات والطرب، ثم حدثت القطيعة مع الخال،

وأصبحت للجد شاكر سهراته الخاصة مستعينا بعمال من وابور الطحين، يقال إن وراء قطيعته مع الخال فضيحة صغيرة، أفشى الخال أسرارها فى قعدة له بمقهى بالبلدة، كانا قد ذهبا مع امرأة يعرفها الخال إلى حجرتها فى المنصورة، وحين جاء دور الجد شاكر سمع الخال وكان ينتظر على كنبة خارج الحجرة ضحك المرأة الصاخب وصياحها :

- مسعود . تعال ساعده يا مسعود .

صارت أغنية، رددها الكبار والصغار أياما ثم سكتوا . ويقال إن الخال حكى ما حكاه لأنه كان شايل فى نفسه من الجد شاكر، فهو سبق له التقدم لزينب ورفضه أهلها .

أتخيل الجدة زينب كما وصفتها النسوة وقد جمعها البيت بالجد شاكر، وربما بلغها شىء مما يحكى عنه فى البلدة، لا تميل كثيرا لمداعباته بما فيها من غلظة، وعادة ما تقتصر على مد يده ليغرف من استداراتها كلما مرت به، أو يتلصص عليها عندما تغير ملابسها، وربما بدا النفور عليها، وربما أيضا زجرته، لا يطيل بقاءه فى البيت، يتناول لقمته ويمضى، ويعود فى وقت متأخر، حتى وابور الطحين كان يتركه فى يد العمال حتى يصحو براحته .

ويوما، بعد زواجها بأسبوع ظهرت الجدة زينب للبنات فى الحوش بوجه تكسوه الكدمات وشفتين وارمتين . تحاشت البنات النظر إليها حتى ابتعدت وتهامسن :

- الليلة كانت حامية . عض وقرص .

- ما يعمل ده غير الخائب .

بينهن اثنتان تزوجتا من عامين، قالت واحدة منهما :

- ولا عض . ولا قرص . ده ضرب .

- يا خبر . يضربها ؟

وحين رأين الجد شاكر بعد ساعة يمر بهن خارجا ولمحن الخدوش بوجهه أيقن أنه كان الضرب . الجدة زينب لاتشكو ولا تهدد بالعودة إلى بيت أهلها، ولاتحكى لأحد، حتى الجد كامل حين سألها عما بوجهها قالت :

- مفيش .

يتناول الجد شاكر غداءه وقت العصر، ويأخذ قيلولته، عادة ما تتواجد الجدة زينب وسط البنات بالحوش فى هذا الوقت، وتمد يدها فى العمل معهن، يلمحن تحت الروب الذى تلبسه قمصان النوم زاهية الألوان، يتبادلن نظرة خاطفة تتساءل عن وجودها بينهن ؟ . ما يعرفنه أن العروسين فى أيام الزواج الأولى لا يفترقان، لاصقان دائما ببعضهما، أيام قليلة وتذهب زهوة الزواج ولا يبقى لهن غير وجع الدماغ .

يصحو الجد شاكر من قيلولته، يغتسل ويشرب شايه، يمر بهن فى زينته والعطر يفوح منه خارجا لسهرته، ويلمحن بطرف عيونهن الجدة زينب فى قعدتها بينهن لم تغيرها، ولا التفتت نحوه، ما أن تفارقهن قليلا حتى يتهامسن :

- ده خصام .

- خصام ودلع .

- قال دلع قال . بعد كل ما سمعناه عن شاكر .

الجد شاكر كان عائدا من سهرة، مسترخيا فى مقعده بالحنطور، ونسمة الليل طرية، وأصحابه فى مرح بعد تدخين أربعين حجر جوزة، كانوا يناوشونه :

– ويدك يا حاج . شفناها تدخل الفستان .

– ولم نرها تخرج .

– يمكن لسه هناك .

وانفجروا صاخبين . الجد شاكر ابتسم مغمغما :

– أهى دى النسوان .

هم رغم عربدة الحشيش فى أدمغتهم التقطوا المعنى الخفى لكلامه، قال واحد منهم :

– يا حاج . معك زينة البلد .

الجد شاكر قال : آه يا سيدى . شوف انت وهو .

تربع على المقعد : سأقولها لكم حكمة . أنا عرفت من النسوان أشكال وألوان . المرأة مرأة غير ذلك أقول لك لأ .

وألقى برأسه للوراء منهيا الكلام، ألحوا عليه قائلين أنهم غير فاهمين .

الجد شاكر تنحنح وقال :

– الواحدة مادام طلعت السرير يبقى خلاص . وحتى قبل ما تطلع . وقت ما يقفل الباب عليهما . الواحد منا لا ينام مع رجل أو حائط .فيه . فيه حاجات كثيرة .

لا جديد فيما يقوله . سمعوه عشرات المرات، هذه المرة بخلاف ما سبق، وعرفوا إلى أين يرمى بكلامه، وتغامزوا بركبهم فيما بينهم .

تردد ما قاله عن الجدة زينب يومين أو ثلاثة فى البلدة ثم سكت، وبلغ فى سريانه أذان النسوة والبنات فى الحوش، تهامسن عندما رأينها تعد له الفطور على الصينية :

– حتى امرأته لم تسلم من لسانه .

– ولو كانت كما يقول معها حق .

– الواحدة مع واحد زيه لابد تكون حجر .

– عينى عليك يا زينب وعلى بختك .

– آه . كانت تستحق أحسن من كده .

يرجع الجد شاكر من سهرته، الجدة زينب راحت فى النوم . هل كانت تصحو لدى مجيئه ؟ أم كان يوقظها عندما يرغبها ؟ . يهزها خفيفا من كتفها، وتراه يخلع جلبابه، تشمر القميص مستلقية على ظهرها، وجهها صامت، وعيناها ساكنتان يغلب عليهما النعاس، ما أن ينتهى حتى يرتمى جنبها لاهثا، هى فى رقدتها لم تغيرها . سرعان ما يستغرق فى النوم وفمه المفتوح يطلق شخيرا متقطعا . تلم ساقيها وتخرج لتشطف نفسها .

بعد زواجها بشهر استبدلت الروب والقمصان الزاهية بجلباب مشجر ومنديل رأس يلف شعرها .

- وبرضه حلوة وزى القمر .

وبعد شهر آخر بان الشحوب على وجهها وظلال خفيفة حول عينيها .

- حتى فى زعلها حلوة وحلوة .

يرونها بعد خروج الجد شاكر تعتكف فى الحجرة بالساعة والساعتين، ثم تخرج لتقعد معهن صامتة مضمومة الساقين وخدها على يدها .

ويوما عاد الجد شاكر بعد خروجه، ربما نسى شيئا، ورأى بنتا منهن ترتب الحجرة، كن وقتها لسبب ما يتجمعن فى حجرة أخرى والحوش خال، ربما يجهزن العجين للخبيز، ما أن شعرت به البنت حتى اندفعت مذعورة تقصد باب الحجرة . حاصرها الجد ضاحكا .

- سبنى يا حاج أخلص شغلى .

- ما هو ده برضه شغل .

ضيق عليها حتى انزوت فى ركن الحجرة، صدرها الناهد تحميه بذراعها، الذراع الأخرى متأهبة لصده، استطاعت يده أن تصل إلى صدرها . تأوهت البنت من الألم، انحنت على نفسها، فلتت منها صرخة ضعيفة، مد ذراعه ليحتويها، لمحت عيناه الجدّة زينب بباب الحجرة، أفلت البنت وضحك، سوى صدر جلبابه وخرج .

- الكلمة العيب لا تخرج من فمها أبدا . انما يا ست أم ياسر عليها بصة تفلق الحجر.

- دى كانت هانم ؟

- أه هانم .

تكورت هانم فى الركن مخفية وجهها وجسدها يرتعش بالبكاء الخافت .مدت الجدة زينب يدها وأوقفتها :

- اغسلى وشك .

جلبابها اتمزع عند الكتف، وبان لحم صدرها، غسلت وجهها .

- وشربنا كلنا الشاى . وهانم عينها فى الأرض . توشوشنا انها مكسوفة من الست زينب . واحدة منا خاطت لها القطع . والست زينب جاءتها بقطعة قماش من دولابها تفصلها جلبابا . أيام يا ست أم ياسر .

فى نفس اليوم، وقبل أن يعدن إلى بيوتهن أخلين الحجرة الأخرى من كل الكراكيب، وكنسنها، ونقلن إليها الكنبة من حجرة الجد شاكر، وصندوق ملأته الجدة زينب بما تحتاجه من ملابس .

- الحاج كامل حاول يصالح . والحاج شاكر ركب دماغه . والست زينب قالت حتى لو حصل صلح لن تعود لحجرته أبدا . وقد كان .

أسبوع والثانى ووقفت عربة كارو أمام باب البيت . عليها دولاب وتسريحة وسرير بفرشته أرسلها الجد كامل .

الجد شاكر ولا على باله . وربما استراح لما جرى، لم يعجبه أبدا أن يمد يده عليها من وقت لآخر، وكل مرة يضربها يظل ساعات عكر المزاج ويعانى من أوجاع فى بطنه، هو بطبعه ينفر من ضرب النساء، وقال ذلك كثيرا فى قعداته، وحين يتصادف مروره

فى حـــارة ويرى واحـــدا يضـرب امـرأته يتـوقف والألم على وجـهـه، وأحيانا يتدخل مهدئا الرجل .

الجدة زينب لا تريحه أبدا . مجرد وقفتها تنظر إليه تستفزه، تعاليها والرد عليه بكلمة أو كلمتين فى صوت خافت لا يسمع، وأوقات لا تقول الكلمتين، تستدير وتمشى، تتركه واقفا يكلم نفسه، ودائما هو الذى يسعى إليها، فى المرات الأولى قطعت نفسه حتى رضيت، وأحيانا كان يمزق قميصها، وتستلقى أخيرا ساكنة، يحس بجسدها ميتا تحته. وقالها يوما للجد كامل :

- قصر الكلام . لاهى من توبى ولا أنا من توبها .

لم تراوده فكرة الطلاق . سيصيبها ذلك بالكثير من الأذى، وهو لا يكرهها، غير أنها لو طلبت الطلاق فلن يقول لا . لم يكن له فى الزواج أصلا، واكتشف ذلك بعد زواجه بأيام، ولو ترك لشأنه ما سعى إليه أبدا . هو أبوه كامل، وكان قصده خيرا .

شال الموضوع كله من دماغه، واستعاد بشاشته وكأن عبئا ثقيلا أزيح عنه، لا شىء ينقصه، وأموره فى البيت تجرى كما كانت، تأتيه واحدة من النسوة بصينية الفطور، وتأتيه أيضا بصينية الغداء، فرشته نظيفة ومرتبة، ملابسه مغسولة ومطوية فى الدولاب، ويمر بهن فى الحوش لدى خروجه، يتوقفن عن الكلام، لا يلمحها بينهن، لابد أنها فى مكان ما تنتظر خروجه . ويضحك فى نفسه ويمضى .

حتى كانت مرة بعد القطيعة بشهر أو أكثر، عاد فجأة بعد

خروجه لسبب ما، ورآها أمامه وسط الحوش، نظر إليها فى دهشة، كان قد نسيها، وأراد أن يقول شيئا ولم يسعفه الكلام، وهى استدارت إلى حجرتها .

تصحو الجدة زينب مبكرا، تعد الفطور على صينية وتنتظر، أذنها على حجرة الجد كامل المجاورة، تعرف من حركته هناك أنه انتهى من ارتداء ملابسه، ودائما تجده بدون حذاء وكأنما ينتظر مجيئها بالفطور، يتربع أمام الصينية :

- مدى يدك .

وتمد يدها .

بجوارها موقد سبرتو صغير فوقه براد الشاى، يسترخى الجد كامل بعد الفطور وذراعه ممدودة فوق ركبته، يرمق الجدة زينب مبتسما ويقول إنه لم يحظ بمثل هذه المعاملة من قبل. تبتسم الجدة زينب وتناوله كوب الشاى .

ويقول الجد كامل أنه طول عمره يلتقط ما يأكله وهو فى الطريق، حبة طماطم، خيارة، شمامة، وأحيانا رغيفا وجبنا من الفلاحين معه .

- آخر ما زهقوا منى عملوا حسابى فى الأكل .

الجدة زينب منحنية على الموقد تعد القهوة، هو لم يشربها فى حياته غير أربع أو خمس مرات، ومنذ بدأت تأتيه بالفطور أخذ يعتادها، تناول رشفة فى متعة . كانت ترقبه . قال :

- تسلم يدك .

فى قعدتها تحسب ما يحتاجه البيت من طلبات، تعدها على أصابع يدها، ويقول لها عندك المحفظة مشيرا إلى منضدة صغيرة، تفتح المحفظة وتسحب نقودا، تقول :

- أخذت كذا . ما كل هذه الأوراق ؟

- الله أعلم .

تفتح بعضها وتقرأ . تضحك :

- منصور أخذ كذا . وعبد الستار سدد . طلمبة ماء . ماسورة ..

- حاجات قديمة .

- ولم تحتفظ بها ؟

- من يدرى . دائما يطلبون أوراقا .

- لم تخبرنى . طريقك اليوم .

- لن أخبرك . ولا تتعبى نفسك بالمجىء .

- ولا تعب ولا حاجة .

- مشوار عليك يا زينب .

- ولا مشوار ولا حاجة .

مستندة بظهرها لحلق الباب المفتوح، ويدها تتحسس ضفيرتها المسترخية على صدرها . ويأتيها صهيل الفرس وقد جاء بها ولد من الزريبة وربطها بشباك البيت فى الخارج . ويقول الجد كامل :

- آن الأوان .

وتمسك الجدة زينب بطرف جلبابه :

- لن تخرج حتى تقول لى .

يضحك الجد كامل : الأمر لله .

ويخبرها بالمكان الذى يقصده .

أحيانا تأتى النسوة مبكرا حين يكون هناك خبيز وغسيل، ويمر بهن الجد كامل تتبعه الجدة زينب، يتوقف قليلا يسأل عن أحوالهن، كان يعرفهن واحدة، واحدة، ويستدير ليخرج، تنفض الجدة زينب بأصابعها غبارا لمحته على كتفه، النسوة يتبادلن بسمة خفيفة، عيونهن على الجدة زينب فى وقفتها بالباب، ظهرها المشوق، عنقها النحيل، ضفيرة شعرها الأسود اللامع .

- كلها حلوة .

- حلوة وحلوة .

عدن إلى ما فى أيديهن من عمل، والجدة زينب أغلقت الباب .

يقف الولد بالحمار خارج البيت . النسوة أعددن المقطف الذى ستأخذه الجدة زينب معها، به حلتان وطبقان وملعقتان وأرغفة عيش طرى وخيار مخلل .

الجدة زينب بجلباب مشجر، تحكم الطرحة حول رأسها ورقبتها .

تقول للنسوة انها لن تغيب . ساعة زمن .

توقفها واحدة منهن، تبلل طرف طرحتها بلسانها وتمسح كحلا سال جنب عينها، وتساعدها على امتطاء الحمار .

أتخيلها والمقطف أمامها والولد يهرول بجانبها، تخرج من حارة لحارة، وتمر بنسوة قاعدات على مصاطب البيوت، ورجال يجلسون على مقهى يطل على الطريق المؤدية للغيطان، ما أن يحتويها الزرع حتى تفك الطرحة وتتركها تنساب على كتفيها، شمس الظهيرة الحامية، ولا ظلال حولها، نسمة خفيفة تسرى بين الأحواض تحس بها تتسلل داخل جلبابها .

ويكون الجد كامل أخذ جولة واسعة بين الغيطان، لديه سقيفتان . واحدة فى الطرف الشرقى من أرضه الجديدة، والأخرى فى أرضه القديمة التى ورثها عن أبيه، قاد فرسه إليها .

السقيفة من أعواد الغاب وجريد النخل، أرضها مغطاة بعيدان الذرة الجافة، تطل على مجرى ماء، معلق بجوانبها من الداخل جلباب قديم وصديرى، وحبل غليظ، وقلة ماء ممتلئة دائما ملفوفة بقطعة خيش مبتلة لتحتفظ ببرودتها، وكيس من القماش به أدوات الشاى.

نهض مستقبلا الجدة زينب، أخذ منها المقطف وأعطاها كتفه، استندت إليها ونزلت عن الحمار .

– وليه التعب يا زينب ؟

– أشم هوا يا أبا كامل . النسمة هنا حلوة .

تنزل إلى مجرى الماء، تشطف وجهها وتجففه بطرحتها، تتربع جنب المقطف :

– تأكل وهو ساخن .

– محشى ؟

– كنت تقول نفسك فيه .

– آه . من شهور . والله يا زينب بنت حلال .

يعد الجد كامل راكية نار خارج السقيفة ويأتى بأدوات الشاى .

استراحا فى قعدتهما بعد الشاى، تظللهما بالخارج فروع شجرة توت، يستقبلان نسمات العصارى وعيونهما على أطراف الزرع المتمايلة .

ربما كان مشوارها من يوم لآخر بالغداء للجد كامل هو ما أثار فيما بعد القيل والقال عنهما .

فى شهرها الثالث من الحمل توقفت عن الذهاب، وكانت ترسل بنتا بالغداء، وربما هدأت بذلك شكوك الكثيرين . غير أن البذرة ظلت كامنة تنتظر الفرصة .

بلغ الهمس أذان النسوة فى الحوش، الجدة زينب كانت فى شهرها الأول أو الثانى، ربما لم تنتبه إلى حملها بعد . تتحرك فى خفة بينهن، التفتن إليها وكانت متربعة على حصير فى ضوء منور السلم، تسرح شعرها المغسول، ورذاذ ماء خفيف يتناثر منه . تهامسن :

– قطع لسانهم واحد . واحد .

– لم يجدوا غير المسكينة ليتكلموا عنها .

الشتاء . توحل الشوارع والحوارى سريعا، وتتجمع المياه وسطها، وتسيل من الأسطح على واجهات البيوت، يفرحون فى البلدة بمجيئه، ويقف الكثيرون طويلا على المصاطب بمداخل بيوتهم يرقبون تدفق المطر وتسرح أفكارهم .

الجد شاكر لا يوقفه مطر أو حر، ينطلق فى موعده بعد قيلولته التى تستمر أحيانا ساعات . ينتبه لشدة المطر وهو بالباب قبل أن يخرج، يعود . يقلب فى الدولاب حتى يعثر على الشمسية والعباءة، يفردها على كتفيه ويمدها لتغطى رأسه، ويرفع ذيل جلبابه بيده وهو يخوض فى الوحل . عادة ما ينتظره الحنطور فى مثل هذه الأيام على ناصية الحارة .

قليلا ما يخرج الجد كامل بعد عودته من الغيطان، اعتاد النوم مبكرا، يتناول عشاءه بعد الصلاة، ويتربع جنب فراشه مطرقا ويداه فى حجره، وحين يحس ببوادر النعاس يصعد إلى السرير .

فى الليالى الممطرة لا يستقر نومه، يغفو مع ايقاع المطر الرتيب، ويصحو فى فترات انقطاعه مرهفا أذنه للأصوات فى الخارج . كنت

أسمع فى حجرتى سعاله وغمغمته فى الليل وخطواته المتمهلة وهو يتجول فى الحوش .

يحتفظ تحت مخدته فى الشتاء بطاقية صوف لم تكتمل وبكرة خيط من صوف الغنم وإبرة، لا أدرى أين يخفيها بعد الشتاء، يسحبها فى فترات صحوه، تتعثر الإبرة أحيانا ويفك ما عمله من غرز ويبدأ من جديد .

يقول : لا بد أننى نسيت طريقتها .

ويسألنى : كم تظن عمرها ؟

– سألتنى مائة مرة .

– مائة ؟

– آه . كل مرة تسألنى .

– عمرها أكبر من عمر أبيك . جدتك زينب أتذكرها ؟

– لم أرها .

– كل ليلة أنسى طريقة عمل الغرزة . وتذكرنى .

ويصمت قليلا :

– تمسكها بأصبعين . وفى لحظة تعمل ثلاث وأربع غرز . من سرعتها لا أرى سن الإبرة ولا أين تذهب . وكانت تضحك وتقول مرة ثانية . وثالثة . ورابعة .

ويصمت مرة أخرى :

– شتاء واحد قضته معنا . شتاء طويل . أظنهما اثنين . شتاء . وشتاء . آه . بعد مجىء أبيك . الشتاء الثانى كان قصيرا . لا أتذكره .

أتخيله والمطر ينهمر، ينهى صلاته ويتربع فى قعدته منصتا لنقرات المطر على شباك حجرته، وتكون الجدة زينب التى عرفت مواعيده قد أعدت صينية العشاء، تدخل بها . الجد كامل يدفىء يديه على وهج جمرات فى وعاء فخار أمامه، يزيحه جانبا، يتأمل وجه الجدة زينب المبتسم وهى تنحنى بالصينية . تقعد جنبه :

– والشوربة اللى بتحبها .

وترفع غطاء السلطانية، يتشمم الجد البخار المتصاعد .

– الله . الله .

– وفص الليمون .

– لاتنسى شيئا أبدا .

وربما قالت لتكسر الصمت بينهما أثناء الأكل :

– المطرة الليلة شديدة .

– آه . شكلها بيقول طول الليل .

– وطبعا الطاقية تحت المخدة .

– آه .

– وطبعا نسيت تعمل الغرزة ازاى ؟

- ربك يسهل .

- حاتلبسها يا أبا كامل ؟

- بس تخلص .

- نفسى أشوفك بها .

- يعطيك طولة العمر .

الجدة زينب انتهت من عشائها وانتظرت .

- أكلتك خفيفة يا زينب .

- أبدا . شبعت .

يرمق الجد كامل كتفيها وكانتا ممتلئتين قليلا ويبتسم .

- بتضحك على أيه يا أبا كامل ؟

- أبدا .

- هو ضرورى الواحدة تكون تخينة ؟

- أبدا .

- وخالتى فهيمة كانت تخينة ؟

- عود قصب .

يسترخيان بعد العشاء . الجد كامل يتأمل لمعة الزفر بيديه، والجدة زينب تنصت لوقع المطر فى الخارج .

ينهض الجد كامل ليغسل يديه، والجدة زينب تحمل الصينية وتخرج، تعود ومعها موقد السبرتو وأدوات الشاى .

الجد كامل يضع وعاء النار بينهما، ويسحب من تحت السرير شيكارة أبو فروة التى يحبها, يرص الحبات فوق الجمرات، يقلبها من حين لآخر بظفره .

يتوقف المطر ويعم السكون، رذاذ خفيف هادىء . الجدة تسند ظهرها لحلق الباب، ساقاها ممدودتان، وقدماها متعانقتان، والجد كامل يقشر حبات أبو فروة ويمد يده بها، يرشفان الشاى دون صوت، حمرة الدفء سرت فى وجهيهما .

الجـدة زينب فى شـهرها التاسـع . عـاد القيل والقال يسرى همسا، واستمر حتى ولادتها . هؤلاء الذين رأوها عندما وقفت لحظات بباب البيت تنظر هنا وهناك وبطنها بارز فى شدة تستند بيدها لإطار الباب، البعض منهم لم يروهـا منـذ شـهور ينظرون فى عجب إلى بطنها، وربما أخـذ الهمس طابعا ساخرا كالعـادة حين يتعلق الأمـر بالجد شاكر :

- معقول هو ؟

- بعد كل ما يقال عنه ؟

- ومتى فعلها ؟

- صحيح . لا يقعد فى بيته خمس دقائق على بعضها

ربما ما جعل الهمس يأخذ هذا الطابع الحكاية التى تناقلوها عن تلقى الجد شاكر للخبر .

كان يجلس فى مقهى وداعبه واحد من القاعدين معه :

- مبروك يا شاكر . يتربى فى عزك .

الجد شاكر له شهور لم ير الجدة زينب، ولا كانت على باله، نظر فى دهشة إلى المتحدث، وقال آخر :

– سمعنا انها يومين أو ثلاثة وتقوم بالسلامة .

الجد شاكر ينقل نظراته من واحد لآخر دون أن يستوعب ما يقولانه، حذرا على ما يبدو أن تفلت منه كلمة وتأتى فى غير محلها .

– آه . والله . لو رأيتموه . تلقى الخبر مثلنا تماما .

بلغ الهمس آذان النسوة فى الحوش . كن على غير العادة ساكتات . يعملن وعيونهن على ما فى أيديهن . من حين لآخر يختطفن نظرات إلى الجدة زينب . كن أعددن لها فرشتها فى مكانها المفضل عند منور السلم، تقعد وساقاها الممدودتان منفرجتان وظهرها للجدار، تتحرك يدها فوق بطنها . تلتفت نحوهن بابتسامتها الشاحبة، يبادلنها الابتسام . وتقول واحدة:

– بيتحرك ؟

تومىء لهن . يبتسمن مرة أخرى .

يسألنها إن كانت تريد إن تأكل أو تشرب شيئا ؟

تهز رأسها نفيا . بجوارها طبق به حبات من المشمش والبرقوق لم تلمسها .

ويسألنها بعد قليل إن كانت تعبت من القعدة وتريد أن تعود لحجرتها ؟

تهز رأسها نفيا .

فى قعدتها المسترخية ووجهها مائل جانبا، تسبل عينيها وتبدو كمن غفت .

– خذ بيدها يا رب .

– ويقولون ما قالوه .

– فضيها سيرة .

تسألهن إن كن أرسلن الغداء للجد كامل ؟

– آه . أخذته فايزة .

– وراحت ماشية ؟

– ماشية ازاى يا ست زينب . الأكل يبرد . الولد جاء بالحمار . ابن حلال . لم يتأخر يوما .

تغمض عينيها وتسأل عن نوع الأكل الذى أرسلنه .

– كل ما قلتيه عملناه . لا تشغلى بالك .

– والباذنجان المخلل ؟

– والباذنجان المخلل .

يوم ولادتها جاءت الداية مبكرا . دخلت حجرتها وواربت الباب، وراحت تلقى أوامرها للنسوة فى الحوش . كن بلا عمل فى هذا اليوم، لبسن جلابيب نظيفة زاهية الألوان، وتفرغن لإعداد ما يطلب من طعام وشراب، الجد كامل أرسل قبلها بيوم الحلبة المطحونة والشربات وكميات وافرة من اللحم والفاكهة .

تناول فطوره وقعد فى حجرته متأهبا، ينادى على النسوة من لحظة لأخرى ويسأل عن الأخبار .

– خير يا حاج إن شاء الله .

الجد شاكر صحا فى غير موعده على الضجة . سأل المرأة التى جاءته بالفطور وقالت له .

ارتدى ملابسه بعد تناول فطوره وخرج . كان فى طريقه لباب البيت المفتوح على سعته حين سمع صوت الجد كامل وراءه :

– خارج ؟

النسوة فى الحوش توقفت حركتهن، ورحن ينظرن إليهما . الجد شاكر استدار محدقا إلى الجد كامل وكان مقبلا من حجرته على مهل، وتوقف على بعد خطوتين منه . تبادل الاثنان النظرات والصمت ثقيل بينهما، وتقطيبة خفيفة على جبين الجد شاكر الذى استدار وكأنما سيواصل سيره إلى الباب ثم توقف مطرقا وازدادت تقطيبته، ومر بالجد كامل عائدا إلى حجرته .

قرب العصر خرج أبى إلى الدنيا . حجرة الجدة زينب ازدحمت بنساء من أهلها، والنسوة اللائى يساعدن الجدة تجمعن فى الحجرة الخالية وكان بها القليل من الخزين – أرز وسمن وعسل أسود – يعددن الطعام والحلبة المطحونة، ورجال من عائلة الجدة زينب والجيران قعدوا على الحصر فى الحوش حول صوانى الطعام – الفتة واللحم المسلوق .

الجد شاكر يتقبل التهانى صامتا وعيناه فى صينية الطعام أمامه، والجد كامل يوزع أكواب الشربات مبتسما .

وكان هناك من جاء من حجرة الجدة زينب يسأل عن اسم للمولود .

العيون اتجهت نحو الجد شاكر الذى ارتبك وطرفت عيناه . غمغم :

– ما تختارونه .

قال الجد كامل : طه

– ونعم الاسم .

تقول أمى إن هناك من اقترح يومها اسم " زغلول " . ربما والد جدتك زينب، غير أن اختيار الجد كامل كان حاسما .

هو يوم بليلة وعاد الجد شاكر إلى إيقاعه المعتاد . يعود فى وقت متأخر ليستغرق فى نومه، يوقظه منه صراخ الطفل المتواصل، ومرات صوت الجدة زينب تحاول أن تسكته، ومرات صوت الجد كامل يهدهده وهو يمشى به فى الحوش . يظل محدقا إلى باب حجرته المغلق منتبها للأصوات خارجها حتى تسكت فيعود إلى نومه .

حين بلغ عمر أبى عاما ونصف أخذ يحبو متجولا فى الحوش، يتسلق سيقان النسوة الممدودة ويرمى بنفسه فى حجورهن .

الجد شاكر يخرج بعد فطوره، لا ينظر ناحية النسوة فى الحوش، يسرع فى خطوته باتجاه الباب، وربما كان أبى فى أيديهن أو بين سيقانهن ولم ينتبه إليه . هو أيضا لم يدخل حجرة الجدة زينب زائرا أو حتى ليلقى نظرة على المولود .

المرة الأولى التى رأى فيها أبى كانت عن بعد ومن خلف زجاج نافذة المقهى .

الجد كامل اعتاد أن يأخذ أبى أمامه على الفرس ويتجول به ساعة المغرب، ويخرج به يوم الجمعة صباحا وعصرا . وعاد القيل والقال، وربما بلغ هذه المرة أذن الجدة زينب، كانت لا تخرج إلا

قليلا من حجرتها . النسوة فى الحوش يرقبن بابها المغلق وأيديهن فى العمل :

- منهم لله .

- كسروا قلبها .

تقف الواحدة منهن أمام باب الحجرة تسألها عما يطبخنه للغداء، وغداء الجد كامل، وتكلمها الجدة زينب من وراء الباب . أحيانا تواربه وتدفع بأبى من خلال فتحته، يحبو مرحا باتجاه النسوة .

ومرات تخرج به الجدة زينب لترضعه فى شمس العصارى الخفيفة، تتربع فى مكانها عند منور السلم، وجهها الشاحب الهادىء، وشعرها الملموم فى منديل، وعيناها باتجاه فتحة المنور، وربما كانت تتجنب النظر إليهن، أبى ممدد فى حجرها، ترفع رأسه بذراعها لتقربه من ثديها .

ويوما كان الجد كامل يمر بفرسه فى الشارع الكبير وأمامه أبى، الجد شاكر فى قعدته خلف نافذة المقهى يشرب قهوته قبل أن ينطلق إلى موقف الحنطور . لكزه واحد بجواره وأشار للخارج، ونظر الجد شاكر، ورأى أبى يمسك بيده لجام الفرس ويهز قدمه، الجد كامل كان يكلم واحدا من معارفه، الجد شاكر يحدق إلى وجه أبى حتى تحرك الفرس مبتعدا .

ربما فى نفس الليلة انطلق إلى بيت أهل الجدة زينب، المرة الأولى التى يزورهم بعد زواجه، قعد مع أبيها وأمها فى الحجرة،

رفض أن يشرب شيئا، وقال إنه ينوى الطلاق وجاء ليخبرهم، ربما بلغهما ما يسرى من همس، استمعا إليه ساكتين . لم يناقشاه فى شىء. وكل ما قاله الأب :

- اللى تشوفه يا ابنى .

وخرج الجد شاكر قاصدا بيت المأذون .

فى نفس الليلة أيضا وقف الحنطور أمام بيت الجد كامل، خرج من حجرته حين سمع صوت والد الجدة زينب الذى أخبره بما كان من لقائه بالجد شاكر .

أنصت الجد كامل مطرقا ثم استدار ودخل حجرته .

خرجت الجدة زينب ومعها أبى تحمل القليل من الأشياء أغلبها يخص أبى، ومضى بهم الحنطور .

اعتاد الجد كامل أن يذهب صبيحة كل يوم جمعة إلى بيت أهل الجدة زينب، يوقف الفرس على بعد خطوات ويرسل فى طلب أبى . لا أحد من الكبار ينادى عليه أو يخرج إليه، والجد أيضا لم يطرق الباب، الصمت يخيم على البيت، والجد فى وقفته ينتظر، يسمع صرير شيش شباك فى الدور الثانى، يلمحه بطرف عينه مواربا، لا بد أنها الجدة زينب ترقب خروج ابنها . يحمله الجد كامل ويضعه أمامه وينطلق .

واحدة من النسوة فى الحوش دأبت على زيارة الجدة زينب، أحيانا يقال لها إنها نائمة فتعود، وأحيانا يدخلونها،

تحكى للأخريات أخبارها :

– لو شفتوها لن تعرفوها . خسّت كثيرا، وذبل وجهها . ولا مرة شفتها مضفرة شعرها أو حتى سرحته . تلقانى وكأنها ستأخذنى بالحضن، وبعد شوية ولا كأنى موجودة . وطول قعدتى معها وهى راقدة فى الفرشة .

– سألت عنا ؟

– سألت . وبالاسم . تتوه منى فى رقدتها . أكون بكلمها فى حاجة وأجدها تسأل عن واحدة منكن .

هى خمسة شهور بعد طلاقها وماتت .

يوقظنى الجد كامل من النوم . يفتح باب الوسط دون صوت ويقصد حجرتى، يهزنى فى رفق، ألمحه واقفا فى الظلمة الخفيفة عند رأسى، حين يرانى قعدت يشير لى ان أتبعه .

مصباح خافت الضوء بالصالة، ظله الطويل على الجدران وهو يعبرها عائدا لحوش البيت القديم، حجرة أبى وأمى معتمة وبابها مغلق، هما نائمان فى هذا الوقت، وأجده ينتظرنى فى الحوش، يلبس جلبابه الصوف الجديد، آخر ما اشتراه له أبى، وحذاء، وعصاه فى يده والشال الأبيض حول رقبته .

نخرج من باب البيت القديم، بصره الذى ضعف كثيرا . لا يبصر فى الظلمة لأبعد من ثلاث خطوات وأحيانا يرى خيالات أو ظلالا مقبلة نحوه فيتوقف متراجعا برأسه ثم يغمض عينيه قليلا ويواصل السير، هو على ما يبدو لا يستعين كثيرا ببصره أثناء السير، كان يحفظ الحوارى، يخبط بعصاه الجدار الممتد بجواره حتى ينتهى، يمضى من حارة لحارة دون أن يسألنى، حتى المصاطب البارزة – وكنت ألمحها بصعوبة فى العتمة – كان يتفاداها عندما يقترب منها .

- غدا الجمعة . عندك إجازة .

- آه .

- قلت نمشى قليلا . أنت تحب المشى .

تدهشنى يقظته وانتباهه أثناء خروجنا، هو الذى يتوه عندما يحكى الحواديت ويخلطها ببعض .

مشواره معى لا موعد له . وقد يمر شهر لا نخرج فيه، ثم نخرج كل أسبوع أو أسبوعين، ومرة أيقظنى وسط الأسبوع، كان مقرفصا بجوار رأسى . همس :

- صحيت ؟

وهمس ويده على رأسى :

- بكره مدرسة .

وجهه المنكمش الحزين، ونبرة توسل خفيفة فى صوته :

- لو مشينا قليلا . لن نغيب .

فى كل مرة يحذرنى ونحن بالطريق :

- لا تخبر أباك . أخبرته ؟

وأقول أننى لم أخبره .

هى أمى التى اكتشفت خروجنا، وسألتنى أين نذهب ؟

وقلت : نمشى

- أين ؟

احساس غامض ربما بسبب تحذير الجد كامل جعلنى أخفى عنها .

قلت : أى مكان .

وأخبرتها بتحذير الجد حتى لاتحكى لأبى .

سألتها إن كان يجب أن أخبر أبى ؟

حدقت فى وجهى قليلا ثم قالت :

- ما دام جدك قال لا تخبره فلا تخبره .

ونمشى . الجد محنى الكتفين متكئا على عصاه، يتوقف قليلا ليستريح وينظر حوله .

- لا شيء يبقى على حاله . كان هنا مخزن أسمنت . أتراه ؟

- لا أرى أى مخزن .

- ربما فى مكان آخر .

فمه الأدرد مطبق محدقا فى البيوت أمامه :

- كان هنا . مخزن عبود . آه هنا .

ويواصل سيره .

نمشى على شط النهر، هو صامت يحدق للمياه تجرى، يهز رأسه من حين لآخر، يبدو وكأنه نسينى، وأتوقف مختبرا ظنونى، وأراه مستمرا فى مشيه . أقذف بما جمعته من حجارة إلى النهر وألحق به .

ونصل إلى الهويس، يشير إليه بعصاه :

– حكيت لك عنه ؟

– آه حكيت .

– كله كان خلاء . لاترى غير الشجر .

ينحنى فوق سياج الهويس محدقا إلى المجرى، يضحك :

– آه . ومن يتذكر الآن ؟

فى عودتنا نأخذ الشارع الكبير الذى يخترق البلدة من منتصفها، يتوقف قليلا وسط الوسعاية، الوقت يقارب نص الليل والكل نائم، يشير بعصاه حوله منتشيا :

– هى هى لم تتغير . البيوت أكلت نصها . انما .. والمرتفع أيضا مازال مكانه . كنا نأتى إليه وأنا فى عمرك . ونتمدد فوقه حتى الفجر . ولا قطط ولا كلاب تصعد إليك . وحتى لو صعدت .

المرتفع صغير بطرف الوسعاية، بجواره بيت من طابقين، نصعد المرتفع ونقعد، يمد الجد ساقيه مسترخيا، ويخلع حذاءه، ويفك الشال عن رقبته .

النهر على بعد قليل، أراه من خلال حارة مستقيمة، وهواء رطب يأتى إلينا . ممدد على جنبى متكئا على ذراعى أقاوم النعاس، وأنظر إلى بيوت البلدة المترامية ونوافذ قليلة مضيئة .

أسمعه يغمغم :

– البلد فى الليل غيرها فى النهار .

نفس الكلام يقوله كل مرة . والأسئلة أيضا

– أترى هذا البيت ؟

البيت قديم، جرى عليه الزمن، سقطت قشرته الخارجية وبانت حجارته وتآكلت فى الركن المواجه لنا، شيش نافذة متهالك، مائل فى حدة، ربما خُلع أحد مفاصله، مفتوح على سعته.

– هنا عاش أبوك سنوات صباه كلها .

يسكت مدلكا ساقيه :

– لم يكن أيامها قديما كان زينة المكان . كله أبيض . مصيص أبيض .وشبابيكه خضراء، الشباك الأخير . أتراه ؟ حجرتهما . أبيك وجدتك زينب . لم ترها . آه قلت لى . أيامها كان هناك خمس شجرات ليمون أمام البيت، وأبوها الحاج مرسى يقعد بينها على كرسى جريد وأصحابه معه يدخنون الشيشة . استقبلنى أيضا بينها . قلت له إننى أطلب يد ابنتك زينب .

قال : لك ؟

قلت : لابنى شاكر .

سكت وقتا وسألنى إن كنت أدخن الشيشة ؟

وقلت : لا أدخنها .

سكت وقتا آخر وسألنى : وشاكر ؟ سيعمل معك ؟

وقلت : هو الآن معى .

قال : على خيرة الله .

كل مرة أحضر إليه . نتكلم . القعدة حلوة . والنسمة. وزهر الليمون . أجمل رائحة فى الدنيا. وألمح الشباك فى الدور الثانى مواربا. وهناك من ينظر . هى . قالت لى فيما بعد إنها هى . وكنت أحضر لآخذ أباك على الفرس وهى خلف الشيش تنظر، ألمح ذراعها على قاعدة الشباك . ويدها . أعرف يدها . والخاتم بالفص الأحمر . وخصلة من شعرها نفدت من فتحة الشيش وطارت مع الهواء . وتنتظرنا . طول الوقت تنتظرنا . أراها فى عودتنا خلف الشيش. لابد كانت قلقة على أبيك . آه . وتموت .

يغلبنى النعاس، وأنتبه على سعلته . عصاه بين ساقيه، يحفر بطرفها عند قدميه . يبدو وكأنه لن يتحرك فى ليلته، وأقول لأحثه على القيام :

- الوقت تأخر . وربما صحا أبى .

يلم ساقيه، ويستند إلى كتفى ونمشى عائدين .

فى مقعدى خلف المكتب . أعود لأوراق العائلة فى الظرف المهترىء . لم تعد تضيف شيئا لا أعرفه . لكنها تضعنى وسط الأحداث القديمة، وجوه تظهر وتختفى، أكثرها وجوه نسوة فى الحوش، ما عدت أتذكر أسماءهن، وجوه رأيتها بعد ذلك فى شيخوختها وسمعت بموتها، أمى كانت بصحتها تذهب وتأتى فرحة بكل ما حولها، تقعد مع النسوة قليلا ثم تتذكر شيئا يجب أن تعمله قبل عودة أبى التى اقتربت . تنهض فجأة :

- يا خبر . ونسيت .

لا تقول ما نسيته . تغيب وقتا فى البيت الثانى وتعود .

- كنا بنقول أيه ؟

فى الصباح الباكر تصحبنى وأخى للباب وشال يغطى كتفيها شبه العاريتين، تسوى ملابسنا المدرسية قبل أن ننطلق إلى الخارج . عادة أنظر ورائى قبل أن ندخل شارعا آخر، وأجدها واقفة بالباب تضم بيدها جانبى الشال على صدرها، وستعود بعدها لتستلقى بجوار أبى الذى يتأخر قليلا فى النوم .

أتذكره وهو يتحرك دون صوت فى البيت، مناديا أمى فى همس

حتى لا يزعج أحدا . ينحنى مقبلا يد جدى كامل أو خده أو كتفه مبتسما له فى مودة، وحين يلتقى بالجد شاكر يقف على بعد خطوة منه خافضا بصره مستمعا فى صمت إلى ما يقوله . أعود إلى محاولاته الشعرية التى كتبها لأمى منكفئا فى الليل بعد أن ينام الجميع . هو نفس المكتب . ومصباح خافت الضوء . جسده العليل ، وعظام كتفيه البارزة . أتسلل أحيانا . باب حجرته الموارب، ألمحه شارد النظرات والقلم فى يده يجرب كتابة الكلمات فى الفراغ ويتأملها قليلا قبل أن يخطها على الورق . أشعاره الحزينة . أتخيله فى صباه مبتعدا عن الآخرين وألعابهم، متجنبا الشجار، مصطفيا واحدا أو اثنين يمشون ساعة العصر على شط النهر، يتهامسون ويضحكون دون صوت، ويقعدون فى ظلال الأشجار ينظرون إلى مياه النهر ولا ينزلون إليها .

تقول أمى إنها كانت تصحو فى الليل على بكائه الخافت وتجده نائما، تأخذ رأسه إلى صدرها وتهدهده قليلا، يسكت بكاؤه، وتنتظم أنفاسه .

أسأل أمى . كانت فى غرفتها، قليلا ما تغادرها، لم يعد يأتى من النسوة غير امرأة وبنتها، أعمال البيت قليلة، تنتهيان منها فى ساعة أو ساعتين . وصرنا نأتى بالعيش من المخبز، فلا حاجة للفرن أو الخبيز، تقضى أمى وقتا طويلا فى الصلاة، وطرحة بيضاء تلف رأسها وكتفيها .

– تسألنى إن كان يتذكرها ؟ عمره كان عامين وثلاثة شهور

حين فارقته . سألته مرة . قال كل ما يذكره رائحتها . اللبن الرائب . ربما لم تفطمه . هو نفسه كان يسألنى عنها . يظل شهورا لا يذكرها بكلمة . ثم يسألنى يوما بعد يوم . ولا يحلو له السؤال إلا قبل نومه وكنت أظنه راح فى النوم . ويأتى صوته :

– النسوان فى الحوش . أتذكرين ما قلنه عنها .

نفس السؤال كل مرة . وأقول :

– قلن إنها كانت جميلة .

– آه سمعت . وغير ذلك ؟

– غير ذلك . يذكرنها دائما بالخير . ويترحمن على أيامها .

جاءوا به يوما فى عربة وقفت أمام البيت . كان فى اجتماع مجلس المدينة وسقط مغشيا عليه . أفاق . وأرادوا الذهاب به إلى المستشفى . رفض :

– خذونى إلى البيت .

حاولوا معه مرة وأخرى . ولا يقول غيرها :

– خذونى إلى البيت .

كان ممددا فى الفراش بحجرته، يحدق طويلا فى وجوه من يدخلون عليه .لم يخطر لأحد أن يأتى بطبيب . أمى بعيدة فى الصالة . كلما اقتربت أبعدوها، وجهها الذاهل، وعيناها الفزعتان، جدى كامل وجدى شاكر يجلسان على مقعدين بجوار الفراش . الجد كامل صامت يحدق فى أصابع يديه المفرودة ويتحسس الجلد المجعد عند مفاصلها، والجد شاكر مرتعش الفم وعيناه مبللتان، يوشك أن ينفجر

فى البكاء، ينهض فجأة مغادرا .

تخلو الحجرة أخيرا . تدخل أمى . هما هناك وحدهما والباب مـوارب . لا صـــوت يأتى من الداخــل، بعــدها تخــرج أمى لتلبس الأسود .

●●●●

وكأنى أسمع الجد كامل بحجرته يغمغم فى الليل :

- أخذتْه . ما كانت لتتركه طويلا معنا .

أغلقُ الظرف المهترىء، وأعيده إلى درج المكتب .

رقم الايداع: ١٤٠٣٦ / ٢٠٠٣
I.S.B.N
977- 07 - 1002 - 4

أحـــدث إصـــدارات روايات الهـــلال

العدد	اسم الرواية	المؤلف	التاريخ	الثمن بالجنيه
٦٤٥	صهاريج اللؤلؤ	خيرى شلبى	سبتمبر ٢٠٠٢	٧,٠٠
٦٤٦	حلم ليلة افريقية	سيريان إكوينسى	أكتوبر ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٤٧	ليلة عرس	يوسف أبو ريه	نوفمبر ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٤٨	رجل أبله امرأة تافهة	محمد ناجى	ديسمبر ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٤٩	ريحانة	ميسون صقر	يناير ٢٠٠٣	٧,٠٠
٦٥٠	اغتيال	أميلى نوتومب	فبراير ٢٠٠٣	٥,٠٠
٦٥١	كائنات محتملة	محمد عزالدين التازى	مارس ٢٠٠٣	٥,٠٠
٦٥٢	سواقى الوقت	سلوى بكر	أبريل ٢٠٠٣	٥,٠٠
٦٥٣	ما ذكره رواة الأخبار	محمد جبريل	مايو ٢٠٠٣	٧,٠٠
٦٥٤	الدار الكبيرة	محمد ديب	يونيه ٢٠٠٣	٨,٠٠
٦٥٥	النـــول	محمد ديب	يوليه ٢٠٠٣	٦,٠٠
٦٥٦	خيال الظل	جورج سيمينون	أغسطس ٢٠٠٣	٥٠٠



محمد البساطى

– ولد ببلدة الجمالية المطلة على بحيرة المنزلة .

– حاصل على بكالوريوس تجارة وعمل بالجهاز المركزى للمحاسبات.

من مجموعاته القصصية «الكبار والصغار» عام ١٩٦٨ ، «حديث من الطابق الثالث» عام ١٩٧٠ ، «أحلام رجال قصار العمر» ١٩٧٩ ، «هذا ما كان» ١٩٨٧ ، «منحنى النهر» ١٩٩٠ ، «ضوء ضعيف لايكشف شيئا» ١٩٩٣ ، «ساعة مغرب» ١٩٩٦ ، «الشرطي يلهو قليلا» ٢٠٠٢ .

– له تسع روايات وهى: «التاجر والنقاش» ١٩٧٦ ، «المقهى الزجاجي» ١٩٧٨ ، «الأيام الصعبة» ١٩٧٨ ، «بيوت وراء الأشجار» ١٩٩٣ ، «صخب البحيرة» ١٩٩٤ ، «أصوات الليل» ١٩٩٨ ، «ويأتى القطار» ١٩٩٩ ، «ليال أخرى» ٢٠٠٠ ، «فردوس» ٢٠٠٢ .

– ترجمت أعماله إلى اللغات الفرنسية والانجليزية والإيطالية والأسبانية .

هذه الرواية

أوراق العائلة رواية أخرى لمحمد البساطى حيث المنطقة الوسطى بين الضوء والعتمة ، بين الإفصاح والصمت ، إنها رقة عالم ترسمه الإيماءات لا الكلمات ، إيماءات الصبى المشاغب المختبىء دوما فى مكان ما خلف روايات البساطى .

وإذا كان الصبى قد عاد فى رواية «ويأتى القطار» ليحكى عن عالم الآباء فإنه فى «أوراق العائلة» ينبش فى روحه أعمق ليحكى عن ثلاثة أجيال من الرجال ، الجد الكبير، الجد الصغير ، والأب ، وبين الثلاثة عمود الخيمة «الجدة زينب» حيث بهاء الأنوثة المكتملة المتروكة لوحشتها .

إنه مقترح جديد لرواية أجيال يقدمه كاتب لايكف عن الاقتراحات ، ففى هذه الصفحات تتعاشق المصائر وتختلط الرغبات وتمتد حالة الشجن التى تلف الشخصيات لتشمل القارىء المتعطش ، لكن الصبى الراوى المشاغب يعرف متى يكف عن الكلام المباح .